

الإمام الرازي ومنهجه في النفس

الدكتور الطاهر الشحوري

ثَبَّتَ المصادر والمراجع

- ابن الأثير (عزالدين) . الكامل في التاريخ . مصر ، 1303 ، 12 جزء في 6 مجلدات .
- الأشعري (أبو الحسن) . مقالات الإسلاميين واختلاف المصلتين . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ؛ مصر ؛ جزان .
- ابن أبي أصيبعة (أحمد) . عيون الأنباء في طبقات الأطباء . بيروت ، 1376-77 / 1956-57 ؛ ثلاث أجزاء في مجلدين .
- أمير علي (سيد) . مختصر تاريخ العرب . ترجمة عفيف بعلبيكي ، (2) بيروت ، 1967 .
- بدوي (عبد الرحمان) . إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين . القاهرة ، 1962 ، مجلد واحد .
- ابن تغري (بردي جمال الدين) . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، 1383 / 1963 ، 12 مجلدا .
- ابن حجر (أحمد) لسان الميزان . (1) حيدر اباد ، 1329 ، 7 أجزاء .
- ابن حجر (أحمد) . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . تحقيق محمد سيد جاد الحق ، (2) القاهرة 1385 / 1966 ، 4 مجلدات .
- حمدي (أحمد) . الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي . القاهرة 1950 ، مجلد واحد

- حمدي (أحمد) . الدولة الخوارزمية والمغول . القاهرة ، 1949 ؛ مجلد واحد .
- ابن خلدون (عبد الرحمن) . المقدمة . بيروت ، 1961 ، مجلد واحد .
- ابن خلكان (أحمد) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق احسان عباس ، بيروت ، 1968 ؛ 8 مجلدات .
- خليفة (حاجي) . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . اسطنبول ، 1945 ؛ مجلدان .
- الخوانساري (محمد باقر) . روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات . (2) طهران ، 1347 ؛ مجلد واحد .
- خولي (امين) . فصل التفسير في دائرة المعارف الاسلامية النشرة العربية ، القاهرة ، 1352 / 1933 ، 14 مجلدا .
- دائرة المعارف الاسلامية ج 1 و ج 2 . الترجمة العربية
- الذهبي (محمد) . ميزان الاعتدال في نقد الرجال . تحقيق علي محمد البجاوي ؛ (1) مصر ، 1382 / 1963 ، 4 مجلدات .
- الرازي (فخر الدين) . مفاتيح الغيب . اسطنبول ، 1308 / 1890 ، 8 مجلدات ؛
- الرازي (فخر الدين) . اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين . تحقيق علي سامي النشار ، القاهرة ، 1356 / 1938 ، مجلد واحد .
- الرازي (فخر الدين) . أساس التقديس . مصر ، 1328 ، مجلد واحد .
- الرازي (فخر الدين) . مناظرات . (1) حيدر اباد ، 1355 ، مجلد واحد .
- الرازي (فخر الدين) . المباحث الشرقية . حيدر اباد ، مجلدان .
- ابن السبكي (تاج الدين) . طبقات الشافعية (1) القاهرة ؛ 6 مجلدات .
- السمرقندي (النظامي) . المقالات الأربع . ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب ، القاهرة ، 1368 / 1949 ، مجلد واحد .
- السيوطي (جلال الدين) . طبقات المفسرين (2) طهران ، 1960 ، مجلد واحد .
- الشابي (علي) . الأدب الفارسي في العصر الغزنوي ، تونس ، 1966 ، مجلد واحد .

- ابن الشحنة (محمد) . روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر . على هامش الكامل . مصر ، 1303 ، 12 جزءا .
- الشاطبي (ابراهيم) . الموافقات في أصول الشريعة . تحقيق عبد الله دراز . مصر ، 4 أجزاء .
- شليبي (احمد) . التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية (1) . القاهرة 1963 ، 4 مجلدات .
- الصفدي (صلاح الدين) . الوافي بالوفيات . دمشق ، 1959 .
- الصعيدى (عبد المتعال) . المجددون في الاسلام من القرن الاول إلى القرن الرابع عشر 100 — 1370 . القاهرة ، جزء واحد .
- ابن عاشر (الفاضل) . التفسير ورجاله . (1) تونس 1966 ، مجلد واحد .
- عبد الباقي (محمّد فؤاد) . المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم . القاهرة ، 1378 ، مجلد واحد .
- ابن العبري (ابو الفرج) . تاريخ مختصر الدول . بيروت 1890 ، مجلد واحد .
- ابن العماد (ابو الفلاح) . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . بيروت 8 اجزاء في 4 مجلدات .
- العماري (محمد) . فخر الدين الرازي . حياته وآثاره . القاهرة ، 1388/1969 ، مجلد واحد .
- الغزالي (ابو حامد) . إحياء علوم الدين . مصر ، 1278 ، 4 مجلدات .
- أبو القداء (عماد الدين) . المختصر في اخبار البشر . القسطنطينية ، 1286 ، 4 أجزاء في مجلدين .
- القفطسي (جمال الدين) . كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء . (1) مصر ، 1326 ، مجلد واحد .
- قنواني (جورج) فصل الرازي في كتاب إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين القاهرة ، 1962 ، مجلد واحد .

كحالة (عمر) . معجم المؤلفين وتراجم مصنفى الكتب العربية دمشق 1380 /
1961 ، 15 مجلدا .

اليافعي (ابو محمد) . مراة الجنان وغيره اليقضان في معرفة مايعتبر من حوادث
الزمان . بيروت ، 1390 / 1970 ، 4 مجلدات .

ياقوت (الحموي) . معجم البلدان . ليبريق ، 1868 ، 4 أجزاء في 9
مجلدات .

المراجع الأجنبية

ANAWATI (C). Art. sur Fakh Al Din-Al Razi. Ency. Islam. Edi. 1965 pp. 770.

ARNALDEZ (R) Apories sur la prédistination de Razi. Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales du Caire. 1959-1961 pp. 123-137.

BOSWORTH (CE). Art. sur les Churides. Ency. Islam. Edi. 1965 pp. 1226.

BRUNSCHVIG (R). La Berberie Orientale sur les Hafsides des origines à la fin du XVe. Paris 1940-1947 ; 2 Tomes in 40.

JOMIER (J). Quelques positions actuelles de l'exegese coranique en Egypte révélées par une polémique récente (1947-1951). Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales du Caire 1954. pp. 39-72.

ROSENTHAL (F). Art. sur Ibn Al-Athir. Ency. Islam. Edi. pp. 746.

كلمة حول المصادر

لما كان البحث يتفرع لناحيتين ، كان من الطبيعي أن نعلم نوعين من المصادر .

القسم الاول : مصادر تتعلق بمنهج الرازي في تفسيره ، وبالنسبة لهذا الباب اعتمدنا على تفسيره مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (1) ، ضرورة أنه المصدر الواحد ، الذي يبرز لنا المنهج . لأن بقية التفسير الأخرى ، التي ألفها الرازي إما ضاعت أو أن نسخها المخطوطة ليست في متناول أيدينا .

القسم الثاني : مصادر تتعلق بترجمة الرازي ومكانته في عصره وهي تنوع إلى نوعين .

أ) كتب الرازي : اعتمدناها في بعض المناسبات التي أشارت فيها لبعض النواحي المتعلقة بحياته ، ونشاطه العلمي ، غير أننا لم نستطع اعتماد جل كتبه ، لأنها إما مفقودة أو مطبوعة لم تسعفنا الظروف لاستعمالها .

(1) وقد اعتمدنا في هذا الباب التفسير لاحتوائه على كثير من الإشارات ، التي نستخلص منها بعض ظروف حياة الرازي ، وخاصة الفترة التي ألف فيها تفسيره . والتي تقع بين سنتي 595 (2) / 1198 و 603 / 1206 (3) .

(2) المناظرات (4) وهو يصور الجو الذي عاشه الرازي في رحلته لبلاد ما وراء النهر ، والمكانة العلمية التي كان يتمتع بها من خلال هذه المناظرات .

(1) اعتمدت على طبعة اسطنبول الصادرة سنة 1308 / 1890

(2) راجع الرازي : التفسير 3 : 188

(3) نفس المصدر 7 : 581 .

(3) أساس التقديس (5) ، وفيه إشارة لاجابه بملك من ملوك الشرق ، وهو الملك العادل (6) أخ صلاح الدين الأيوبي . حتى أنه أهده الكتاب ، منها بخصاله الحميدة .

ب) الكتب التي ترجمت للرازي باعتباره من أشهر مفكري الاسلام ، وقطب من أقطاب المذهب الأشعري ، وسنرتب هذه المصادر بحسب الترتيب التاريخي ، مع الإشارة لأهميتها .

(1) المجموعة الاولى هي مصادر القرن السابع .

أ) ابن الاثير المتوفي سنة 630 / 1232 في كتابه الكامل في التاريخ (7) ، الذي يعتبر معاصرا للامام الفخر الرازي . غير أن الظروف لم تجمع بينهما ، لبعده المسافة ، اذ أن عز الدين ابن الاثير نشأ بالموصل ، والرازي عاش في اطار البلاد الفارسية ، وما وراء النهر ، وخراسان . وأهمية ابن الاثير ترجع للعصر ، والدول التي عاصرها الرازي .

ب) القفطي المتوفي سنة 646 / 1248 في كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء (8) ، الذي كان معاصرا للرازي إلا أنه لم يدركه لصغر سنه ، وقد رويت له أخبار عنه بواسطة شخص آخر ، وتعتبر المعلومات التي أوردها القفطي من أقدم المعلومات فيما يتعلق بحياته ، وأوفى قائمة بالنسبة لتأليفه (9) .

(4) طبع ببيدر اباد سنة 1355

(5) طبع بمصر سنة 1328

(6) راجع الرازي : أساس التقديس ، 3

(7) راجع ابن الاثير 11 ، 12

(8) راجع القفطي 190

(9) نفس المصدر 190 - 192

(ج) ابن أبي أصيبعة المتوفى سنة 668 / 1270 في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، الذي يعتبر أهم مصدر أرخ للرازي (10) ، كما يمتاز بناحية أخرى هي اتصاله بتلاميذ الرازي وأخذ عنهم (11) .

(د) ابن خلكان المتوفى سنة 681 / 1282 في كتاب وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (12) ، الذي ذكر كثيرا من اخباره ، ولكنه لا يذكر لنا المصدر الذي استقى منه .

(هـ) ابن العبري المتوفى سنة 685 / 1286 في كتابه تاريخه مختصر الدول (13) ، الذي ينقل عن القفطي ، ويورد نفس كلامه ، لكنه يمتاز بذكر قائمة تلاميذ الرازي في زمانه (14) .

المجموعة الثانية من مصادر الرازي يجمعها القرن الثامن ، ولهذا اعتبرها مصادر من الدرجة الثانية وهي :

(أ) أبو الفداء المتوفى سنة 732 / 1331 في كتابه المختصر في أخبار البشر (15) ، الذي ينقل عن ابي الاثير المعلومات التي تهم العصر .

(ب) الذهبي المتوفى سنة 748 / 1347 في كتابه ميزان الاعتدال (16) ، الذي يعرض عن مميزات الرازي إلا قليلا منها ، ليتعرض لشكوكه وحيرته في شؤون العقيدة .

(ج) الصفدي المتوفى سنة 764 / 1263 في كتابه الوافي بالوفيات (17) ، الذي يقدم ترجمة محترمة للفخر الرازي ، والجديد في هذه الترجمة أنه

(10) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 34 - 45

(11) نفس المصدر 3 : 45 - 250 ، 283

(12) راجع ابن خلكان 4 : 248 - 252

(13) راجع ابن العبري : 418 / 419

(14) نفس المصدر ، 445

(15) راجع أبي الفداء 3 : 112

(16) راجع الذهبي 3 : 340

(17) راجع الصفدي 4 : 248 - 259

يقدم لنا فيها عناصر جديدة عن شخصية الرازي العلمية (18) ، كما أنه يتعرض لآراء منتقديه (19) ، وشيئا من شعره .

(د) اليافعي المتوفى سنة 768 / 1366 في كتابه مراة الجنان وعبرة اليقضان (20) ، الذي ترجم للرازي ترجمة وأفية ، أخذ أكثر عناصرها من القفطي ، وابن أبي أصيبعة ، وابن خلكان .

(هـ) السبكي المتوفى سنة 771 / 1370 في كتابه طبقات الشافعية ، الذي قدم لنا الرازي في شخصيته الجدلية التي استطاع بها ان ينتصر على تسع وعشرين فرقة ، وهو الوحيد الذي ناقش الذهبي في اتهامه للرازي ، وانتصر في هذه المناقشة للإمام ابن الخطيب (21) ، كما ذكر السبكي ترجمة لوالده أبي الضياء عمر (22) .

المجموعة الثالثة هي مجموعة القرن التاسع وهي :

(أ) ابن الشحنة المتوفى سنة 815 / 1412 في كتابه روضة المناظر في اخبار الأوائل (23) والأواخر ، الذي أخذ جل معلوماته (24) عن ابن الأثير .

(ب) ابن حجر المتوفى سنة 852 / 1448 في كتابه لسان الميزان (25) الذي يروي نفس عبارات الذهبي عندما يحاول ترجمة الفخر الرازي ، ثم يستعرض النقائص التي أخذت عن الرازي دون ذكر المحاسن .

(18) نفس المصدر 4 : 251

(19) نفس المصدر 4 : 259

(20) راجع اليافعي 4 : 7 - 11

(21) راجع السبكي 5 : 33 - 40

(22) نفس المصدر 4 : 285 / 286

(23) طبع الكتاب على هامش الكامل لابن الأثير بمصر 1303

(24) راجع ابن الشحنة 12 : 115

(25) راجع ابن حجر 4 : 427 - 429

ج) ابن تغري بردى المتوفى سنة 874 / 1469 في كتابه النجوم الزاهرة ، يذكر بعض المعلومات تقلا عن صاحب المراه ثم يقول « ذكر عنه صاحب المراه أشياء الأليق الإضراب عنها » (26) .

المجموعة الرابعة هي مجموعة القرن العاشر وهي :

أ) السيوطي المتوفى سنة 911 / 1505 في كتابه طبقات المفسرين ، الذي يذكر ترجمة قصيرة للرازي ، يضمناها انتسابه لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - (27) .

ب) طاش كبرى زادة المتوفى سنة 968 / 1560 في كتابه مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، ذكره بمناسبة ذكر تفسيره ، وترجم له ترجمة وافية مأخوذة عن كتب المتقدمين ، وتمتاز بذكر السنوات التي قم فيها تأليف كتابه المطالب العالية ، وهو آخر كتب الرازي على سبيل التقريب (28) .

ثم تأتي مجموعة أخرى من المراجع كابن العماد الحنبلي (29) المتوفى سنة 1089 / 1678 ، وحاجي خليفة ، ومحمد باقر الخوانساري ، المتوفى سنة 1313 / 1895 الذي ردد كلام سابقه في الترجمة ، واطاف له اتهامات خصومه (30) .

اما الدراسات الحديثة فهي قليلة بالنسبة للرازي ، وأهمها بحوث قنوتاي في حياة الرازي ومؤلفاته (31) ، وترجمة للرازي أعدها سامي

(26) راجع ابن تغري بردى 6 : 198

(27) راجع السيوطي ، 39

(38) راجع طاش كبرى زاده 2 : 117 - 123

(29) راجع ابن العماد 5 : 22

(30) راجع الخوانساري 699 - 702

(31) راجع فتواني : 2 : 770 ، مقالة عن الرازي في كتاب إلى طه حسين في ذكره السبعين ، 193 - 234

النشار (32) عند تحقيقه لكتاب اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين ، وإشارة بسيطة للرازي في كتاب مذهب التفسير الاسلامي لقولنر بهر (33) : كذلك التذييل الذي ذيل به أمين الخولي فصل التفسير الذي كتبه كارادوفو في دائرة المعارف الإسلامية (34) :

1) الحياة السياسية والثقافية في عهد الرازي

أ) الحياة السياسية

لقد عاش الإمام فخر الدين الرازي النصف الثاني من القرن السادس الهجري (35) ، وفي هذه الفترة كانت تتجاذب الشرق الإسلامي عدّة دول بعد انحدار الخلافة العباسية ، الذي بدأ منذ استولى البويهيون (36) على مقاليد الحكم في بغداد سنة 334 / 945 على عهد الخليفة العباسي المستكفي أبو القاسم عبد الله بن المكتفي 333-334 / 944-946 .

من هذه الدول الدولة السلجوقية (37) ، التي دخلت بغداد سنة 447 / 1055 ، بعد أن وطدت دعائم ملكها ، واحتلت كثيرا من ممتلكات الغزنويين ، وكان دخول طغرل بك السلجوقي (38) إلى بغداد إثر استنجد القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر 422-467 / 1031-1075 . وقد كانت العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة مغايرة للعلاقة التي كانت بين هؤلاء الخلفاء وسلطين البويهيين . وأهم سبب لذلك هو

(32) راجع الرازي : اعتقادات 27 - 34

(33) راجع قولنر بهر

(34) راجع خولي 5 : 348 - 374

(35) ولد الرازي بمدينة الري سنة 543 أو 544 / 1149 أو 1150

(36) راجع شلبي 4 : 44

(37) نفس المصدر 4 : 52 - 54

(38) نفس المصدر 4 : 54 - 55

الاتفاق المذهبي ، إذ أنّ السلاجقة اشتهروا بتعصبهم للمذهب السني ، ومن هنا كان تصرفهم اتجاه الخلفاء يتسم بالولاء والطاعة والاحترام (39) .

وقد كانت الفترة الواقعة بين سنتي 447-485 / 1055-1092 ، اي منذ دخل طغرل بك بغداد ، حتّى وفاة ملكشاه (40) تمثل أزهى عصور الدولة السلجوقية لأنّ السّلطة ، كانت متجمعة في يد واحدة وكانت أهمّ نتائج هذا التّجمّع :

أولا : ازدهار حركة انشاء المدارس النظامية على يد الوزير الشهير نظام الملك (41) .

ثانيا : تقدم الفتح الاسلامي في اسيا الصغرى ، حتى استولى السلاجقة على معظمها ، وهددوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وعاصمتها القسطنطينية (42) .

ثالثا : استطاعت الدولة السلجوقية أن تقضي على الدويلات الصغيرة ، التي كانت منتشرة في العالم الاسلامي ، وبذلك عظم النفوذ المركزي ، وضاعت امال البيزنطيين في إعادة احتلال البلاد العربية ، كما تكون جيل جديد من المحاربين الأقوياء ، استطاعوا الصمود أمام الغزو الصليبي (43)

وبعد وفاة ملكشاه ، دبّ الضعف في جسم الدولة السلجوقية ، بسبب الخلافات التي قامت بين ابنائه ، واحفاده . وكانت النتيجة انقسام هذه الدولة العظيمة إلى دويلات صغيرة ، عرفت بدول الأتابكة (44) .

(39) نفس المصدر 4 : 56 - 57

(40) بعد وفاة طغرل بك سنة 455 / 1063 تولى ملك الدولة السلجوقية ألب ارسلان وبعد وفاته سنة 465 / 1072 خلفه ملكشاه الذي بقى إلى سنة 485 / 1092

(41) راجع شلبي 4 : 58 - 59

(42) نفس المصدر 4 : 64

(43) راجع حمدي : الشرق الإسلامي ، 36

(44) راجع قائمة دول الأتابكة في حمدي : الشرق الإسلامي 161 - 169

وقامت على انقراض الدولة السلجوقية المضمحلة الدولة الخوارزمية التركية (45) ، التي بدأت تتوسع على حساب سلاجقة العراق ، وفارس . وانتهز أتسز (46) بن محمد بن نوشتكين الخوارزمي فرصة تهديد دولة الخطأ (47) للسلاجقة ، وضعف سنجر ابن الملك شاه أمامهم ، فأعلن الحرب على ملك سلاجقة العراق ، وفارس سنجر . واستولى على بلاد ما وراء النهر ، واستمر النزاع بين القوتين ، حتى توفي أتسز خوارزم شاه سنة 551 / 1156 ملك دولة الخوارزميين ، وسنجر ابن ملك شاه 552 / 1157 ، وبذلك انتهت القوة السلجوقية ، وأينعت الدولة الخوارزمية الفتية (48) .

تولي السلطنة بعد أتسز ابنه أيل ارسلان (49) ، وفي عهده عبر الخطأ نهر جيحون يريدون خوارزم ، فسار اليهم أيل ارسلان بن أتسز في عساكره إلى أموية (50) ليحاربهم ، ويصدهم ، فمرض ، فأقام بها ، وبعث الجيش مع بعض قواده فانهمز الخوارزميون ، وأسر قائدهم (51) ، وعلى اثر هذه الواقعة توفي أيل ارسلان (52) ، واعتلى العرش بعده ابنه سلطان شاه محمود بمساعدة أمه .

وكان ابنه الأكبر علاء الدين محمد تكش مقيما في جنند (53) فاستعان على أخيه بدولة الخطأ ، حتى احتل خوارزم ، واعتلى عرش أبيه ، ويعتبر عهد خوارزم شاه علاء الدين محمد تكش من أزهى عصور الدولة الخوارزمية

(45) تنتسب الدولة الخورزمية إلى نوشتكين أحد الأتراك في بلاط ملك شاه حيث كان يشغل وظيفة الساعي . راجع حمدي الدولة الخوارزمية والمغول ، 19 .

(46) استز أصله في التركية ادسو ومعناه غير المسمى وسبته العلامة باسم اقسر واقيس . راجع ابن العبري 374 .

(47) الخطأ قوم من التتر الشرقيين تملكوا بلاد الصين الشمالية راجع نفس المصدر ، 374 .

(48) راجع حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، 22 .

(49) راجع شجرة الدولة الخوارزمية في حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، 273 .

(50) أمويه مدينة مشهورة غربي على الطريق من مرو إلى بخارى . راجع ابن العبري ، 374 .

(51) راجع ابن الأثير 11 : 140 .

(52) توفي سنة 568 / 1172 راجع حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، 23 .

(53) راجع ابن العبري ، 374 .

إذ شملت المملكة جميع أراضي سلاجقة العراق ، بعد ان أوقع باخرهم طغرلبيك قرب الرّي سنة 590 / 1193 ، تحت تأثير الخليفة العباسي الناصر 575-622 / 1180-1225 (54) .

وقد اتسعت رقعة الدولة الخوارزمية في عهد خوارزم شاه محمد تكش ، حتى شملت بلاد ما وراء النهر ، واقليم خوارزم ، وخراسان الى بلاد الهند شرقا ، وبلاد عراق العجم غربا (55) ، واحتل كذلك بلاد بخارى ، التي كانت تحت نفوذ الخطأ (56) ، وقد توفي في رمضان سنة 594 / 1197 (57) .

والى جانب هاتين الدولتين نشأت دولة أخرى هي دولة الغوريين ، أو ال شنسب (58) ، الذين نشأوا تحت حكم الغزنويين ، ثم كونوا دولة مستقلة على حساب الغزنويين ، دامت قرابة سبع وستين سنة 543 / 612 / 1148-1250 (59) ابتداء من سيف الدين ، الذي ورث عن أبيه (60) حكم الأسرة الغورية ، وقسم أراضي الغوريين بين إخوته ، وبذلك أصبح للدولة الغورية فرعان :

الأول : ملوك الغور ، وهم الذين حكموا في بلاد الغور نفسها ، وكانت عاصمتهم فيروز كوه .

الثاني : ملوك طخارستان شمال الغور ، وعاصمتها باميان ، ويطلق عليهم اسم ملوك باميان ، وغورية باميان (61) .

(54) راجع ابن الأثير 9 : 230

(55) راجع خريطة الدولة الخوارومية والمغول ، 14 .

(56) راجع ابن العبري ، 374 .

(57) وقيل سنة 596 / 1199 . راجع ابن الأثير 12 : 73 ، ابن العبري 391 / 392 .

(58) يتنسب الغوريون إلى شنسب الذي كان معاصرا لعلي بن أبي طالب كما زعم المؤرخون راجع السمرقندي ، 94 .

(59) نفس المصدر ، 94 .

(60) عز الدين حسين هو سابع أمراء الغوريين مات في الأسر عندما هزمه سنجار بن ملك شاه راجع بسوورط 2 : 1126 .

(61) راجع السمرقندي ، 94 .

وهذا التقسيم للمملكة يدل على بداوة الشعور السياسي عند الغوريين (62) وهو الذي عجل القضاء عليهم من طرف الدولة الخوارز مشاهية .

وقد لمعت اسماء بعض ملوك هذه الدولة ، وسجل التاريخ بعض الاحداث التي تدل على مكانتهم :

فبهاء الدين (63) بن عز الدين حسين الذي تولى ملك الغوريين سنة 544 / 1149 بعد ما انتهى من بناء فيروزكوه ، توجه في جيش عظيم لاحتلال مدينة غزنة عاصمة الدولة الغزنوية ، ولكنه توفي في الطريق ، فخلفه أخوه علاء الدين حسين ، وواصل السير حتى احتل مدينة غزنة سنة 545 / 1150 . وشعور منه بالانتصار ، رفض الخضوع للسلجوقيين وامتنع من دفع المال لسنجار بن ملك شاه سنة 547 / 1152 ، فحاربه سنجار ، وهزمه ، وأسره بخراسان أين مات في الأسر سنة 556 / 1161 .

وقد استقر فرع ثالث للغوريين بمدينة غزنة سنة 569 / 1173 ، واهتم بالتوسعات الغورية نحو بلاد الهند (64) .

وقد بلغت الدولة الغورية أوجها في عهد شمس الدين محمد (65) 558-599 / 1163-1203 ، وعهد شهاب الدين محمد 569-602 / 1173-1206 وحاولت مزاحمة الخوارزميين في زعامة العالم الاسلامي الشرقي .

فقد اندلع نزاع بين علاء الدين محمد تكش ، وغيث الدين ، الذي افتك منه هراة ، وأطرد منها قائدها بهاء الدين طغرل سنة 571 / 1175 .

(62) راجع بسورط 2 : 1126 - 1129

(63) تاسع خلفاء الدولة الغورية . راجع بسورط ، 1129 .

(64) راجع بسورط 2 : 1129 .

(65) وهو يسمى بغيث الدين الأمير الثاني عشر للدولة الغورية . راجع بسورط 2 : 1129 .

وما وصلت سنة 596 / 1200 ، وهي السنة التي توفي فيها علاء الدين تكش ، حتى احتل غياث الدين الغوري أغلب مدن خراسان ، ولعب الخلفاء العباسيون نفس الدور ، وحرصوا غياث الدين الغوري على محاربة الخوارزميين ، حتى يوقف زحفهم في بلاد فارس (67) .

واخوه شهاب الدين حاكم الدولة الغورية في فارس ، يواصل نفس الخطة مع ابن علاء الدين ، ويقتطع لنفسه مدناً تعتبر من صلب البلاد الخوارزمية ، من بينها : مرو ، ونيسابور (68) . ولما تخلص ابن علاء الدين من متاعبه إثر وفاة أبيه ، أرسل كتاباً (69) إلى غياث الدين يعتب فيه عليه استغلال الفرصة ، واحتل كثيراً من بلاد خراسان .

وقد أرجع الخوارزميون بعدد ذلك خراسان إلا هراة تقريباً سنة 602 / 1204 (70) .

توفي غياث الدين بمدينة هراة سنة 599 / 3-1202 (71) .

(ب) الحياة الثقافية :

لم تتعرض المصادر المختلفة للحياة الثقافية في عهد الرازي عدا بعض الاشارات التي قيلت اثناء الحديث عن ترجمته ، الا ان بعض المظاهر نستطيع بواسطتها أن نصور العصر من الناحية الثقافية ، فقد ورث هذا العصر المجهود الفكري الذي خلفته الاتجاهات المختلفة للفكر الفلسفي الإسلامي في العهد العباسي .

(66) وهو المسمى بمعز الدين الأمير الثالث عشر . وهو من فرع غزنه نفس المصدر 1129 : 2

(67) راجع بوسورط 2 : 1127

(68) راجع حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، 25 .

(69) راجع نص الكتاب في حمدي ، 25 .

(70) راجع بوسورط 2 : 1129 .

(71) راجع نفس المصدر 2 : 1127 .

في هذا العصر توضحت العقيدة الأشعرية ، بعد مجهودات إمام الحرمين الجويني ، والباقلاني ، والغزالي فتلقف هذه المجهودات الرازي ، وزاد في تكثيفها ، وتعميقها عن طريق الفلسفة ، وعلم المنطق ، ونتيجة لهذا خبا نجم الاعتزال ، وضعف لانه لم يجد مفكرين يضيفون له عناصر جديدة ، تمكنه من مواصلة المجهود . ولو ثوق المعتزلة بمذهبهم ، خاصة بعد أن أبرز الزمخشري 538 / 1143 تفسيره الكشاف واعتبر طريقة المعتزلة ، أسمى الطرق دون سواها .

وفي هذا العصر تكاثرت الفرق ، وانتشرت وخاصة في المناطق التي عاش فيها الرازي كبلاد خراسان ، وما وراء النهر ، بسبب بعدها عن بغداد ، وبسبب بساطة السكان ، الذين تلقفوا كل التيارات الفكرية (72) التي وردت عليهم ، مما أجبر الفخر الرازي على منازلتها ، ومناقشتها حتى عدّ ابن السبكي (72) الفرق التي جاد لها الرازي ، فأوصلها إلى تسع وعشرين فرقة .

بالإضافة لهذا ، كان التطاحن على أشده بين طوائف الفقهاء : من شافعية ، وحنفية ، وحنابلة نتيجة انتمائهم في الأصول الدينية لفرق مختلفة كالمعتزلة ، والكرامية ، والمرجئة .

انتشر في هذا العصر كذلك التصوف ، وقوى سلطانه على العامة ، خاصة بعد الثورة التي أحدثها الغزالي بالتقريب بين التصوف ، والمذهب السني ، وبسبب الأحداث المريعة التي كانت تهز العالم الاسلامي ، وتشيع فيه الاضطراب ، والغموض ، وعدم الاستقرار .

منها حملات الصليبيين على بلاد الشرق الأوسط التي توالى ، وتعددت ، وكلما اخفقت واحدة تلتها أخرى ، حتى استطاعت أن تكون عدة امبرات في بلاد الشام .

(72) راجع السبكي 5 : 33 - 40

وهذه الإسماعيلية الباطنية (72) تنشر الرعب ، والخوف في أنحاء العالم الاسلامي ، وتحاول القضاء على هذه النخبة الممتازة ، التي أخذت تجدد مظاهر التطور في المجتمع الاسلامي ، فاغتالت نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، وقاضي اصبهان ، وحاولت قتل خوارزم شاه علاء الدين محمد تكش ولكنها فشلت .

واخيرا جيوش المغول بقيادة جنكيز خان ، تحطم ، وتمحى ، ماقضى المسلمون في بنائه وحمايته ستة قرون ، فستولي على حواضر الاسلام الواحدة بعد الأخرى ، وتحولها إلى مقابر ، تنوح فيها الغربان .

كانت هذه الأحداث المتتالية تقض مضاجع المسلمين في كل بلاد ، وتحرك وجدانهم وتثير مشاعرهم ، ففيهم من التفت للتصوف باعتباره ملجأ الياس والهروب أمام هذه الأحداث المعقدة ، وفيهم من واجه عصره بأقوى الأسلحة ، عله يستطيع مواجهة هذه القوى المتحدية ، أما العلوم فقد تكاثرت ، وتنوعت ، واتسعت الدراسات في شتى العلوم الدينية ، والعربية ، وأقبل الناس على المنطق ، والحكمة ، والعلم الطبيعي ، والالهي ، والهيئة ، والموسيقى ، وحتى السحر ، والشعوذة .

في هذه الاضطرابات السياسية ، والعقلية ، والدينية ، نشأ الفخر الرازي ، وقد كان صاحب حس مرهف ، وفطرة سليمة ، فعاش أحداث عصره ، وتأثر بها : وشخصيته الإيجابية ، وفخامة عقليته ، واتساع ثقافته هي التي جعلت حياته عبارة عن مناظرات مستمرة ، مع كل من لاحظ عليه اعوجاجا ، عن الفطرة السليمة ، أو نشازا عن التفكير السليم .

(72) مكرر : فرقة من الشيعة سميت بهذا الاسم لأنها وقفت بسلسلة الإمامة عند اسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق الإمام السادس وقد جعلوا الإمامة بعد جعفر الإبنه اسماعيل وكان جعفر قد عين ابنه اسماعيل خلفا له ولكنه عاد فعين ابنه الثاني موسى لأنه لقي اسماعيل ثملا . انظر فصلي الإسماعيلية والباطنية في دائرة المعارف الإسلامية : الترجمة العربية 2 : 187 188 ، 3 : 290

وكتابه المناظرات يعطينا صورة واضحة عن الجو الثقافي الذي كان سائدا في بلاد ما وراء النهر ، واستجابة عقلية الرازي لهذا الجو ودقة سبحاته العقلية الفلسفية ازاء كل مشكلة من المشاكل التي اثيرت في هذه المناظرات (73)

ومما زاد الحياة الثقافية ازدهارا مشاركة الملوك فيها مشاركة ايجابية ، فقد اشتهر ملوك هذا العصر بالاقبال على العلم ، وحضور حلقاته ، والتلمذ على أشهر العلماء ، مما دفع الرازي للاتصال بهم ، ليقوى جانبه في نشر المبادئ التي عاش من أجلها ، ولأن هؤلاء الملوك في هذا العصر خاصة ، كانوا يمثلون الدرع الحصين الذي حمى العقائد من نوايا الاسماعيلية ، ومحاولتها مسخ الملة الاسلامية وابطال الهجوم الشرعي مدة من الزمن حتى ضعف ، وتشتت قواه . فكانت هزيمته في معركة عین جلوت ببلاد الشام . واتصال الرازي بالملوك لم يكن من أجل المال كما ادّعى بعضهم (74) ، ولكن من أجل نشر العقيدة ، التي كان يؤمن بها ، والتي شعر بأنّ هناك خطرا يتهدها ، فكان يتصل بملوك عصره ، ومن بعدت بلاده اثني عليه كما اثني على صلاح الدين الايوبي (75) مخلص القدس من أيدي الصليبيين ، وراسله ، وأهداه كتابا في الدفاع عن العقيدة ، يتلاءم والمهمة التي حرص السلطان على تنفيذها ، فقد اهدى كتابه أساس التقديس (76) للملك العادل أبي بكر بن أيوب (77) ، لما سمع عنه من آيات الفضل ، وبنات الصدق ، وشهرته في نصرة الدين ، واجماع الناس في الشرق والغرب على فضائله ، وحسناته (78) .

(73) راجع الرازي : المناظرات 2 - 41

(74) راجع الصعدي 227

(75) راجع الرازي التفسير

(76) طبع الكتاب بمصر 1328

(77) هو أخ الملك صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة أخيه تأسيس امبراطورية تعادل في اتساعها امبراطورية أخيه . توفي في 7 جمادى سنة 615 الموافق 21 اوت 1218 . راجع سيد أمير علي ، 330 .

(78) راجع الرازي : أساس التقديس ، 4

(2) الرازي

أ) حياته :

هو أبو عبد الله (79) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي القرشي (80) التيمي البكري ، المعروف بابن خطيب الري ، وبالإمام الرازي (81) . ولد في 25 رمضان (82) سنة 543 / 1149 (83) بمدينة الري ، وابتدأ حياته العلمية بالتلقي على أبيه ضياء الدين أبي القاسم ، الذي لازمه إلى وفاته (84) .

ولقد تميز ضياء الدين والد الفخر بعدة علوم كالكلام ، والأصول . وكان يدرس بالري (85) ويخطب في أوقات معلومة ، وبلاغته وحسن ما يورده هي التي دفعت الناس لتسميته بخطيب الري . أرخ له السبكي في طبقاته (86) ، ونوه ببراعته في علم الكلام ، وانتصاره للمذهب الأشعري ، حتى أنه الف فيه كتابا (87) يعتبر من أنفس كتب أهل السنة ، عقد في آخره فصلا في فضائل أبي الحسن الأشعري .

وتلمذ الرازي على أبيه مكنه من دراسة علم الكلام ، والفقه بسند يوصله في علم الكلام للإمام الأشعري ، وفي الفقه للإمام الشافعي (88) ،

(79) عند ابن الأثير والقفطي هو أبو الفضل راجع ابن الأثير 12 : 113 ، القفطي ، 190

(80) عند السيوطي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق : راجع السيوطي ، 39 .

(81) ورد الاسم كاملا في المصادر التالية : القفطي ، 190 ، ابن خلكان 4 : 249 ، أبي الفداء 3 : 1112 ، الصفدي 4 : 248 ، اليافعي 4 : 249 ، السبكي 5 : 34 ، السيوطي ، 39 .

(82) راجع ابن خلكان 4 : 252 ؛ اليافعي 4 : 11 .

(83) بعض المصادر جعلت ميلاده سنة 544 / 1149 انظر مثلا ابن خلكان 4 : 252 .

(84) راجع ابن خلكان 4 : 250 ؛ أبي الفداء 3 : 112 ؛ اليافعي 4 : 8 .

(85) راجع ابن أبي أصيبعة ، 37 .

(86) راجع السبكي 4 : 286 .

(87) سباه غاية الغرام في علم الكلام ، وقف عليه السبكي راجع نفس المصدر 4 : 286 .

(88) راجع سلسلة السند في ابن خلكان 4 : 252 ؛ اليافعي 4 : 11 .

وبذلك استطاع الرازي أن يرتشف تيارات الثقافة الإسلامية من منابعها الأصلية ، بدون أن تعكرها النحل الناشزة ، ولا الفرق الضالة .

وهذا الاتصال الأول بأبيه مكّنه من دراسة العلوم الشرعية ، من فقه ، وأصول ، وعلم كلام على الطريقة السنية الأشعرية . ثم قصد الكمال السمعاني (89) ، وأخذ عليه الفقه (90) ، ثم عاد للري .

وقصد الرازي للسمعاني يدل على شهرته ، وعودته توحى بعدم انسجامه مع استاذه ، لأن الفخر الرازي كان يبحث عن شيء آخر غير العلوم ، التي تلقاها ، والتي كانت منتشرة في وسطه العلمي ، ولعل منيته بدأت تتحقق عندما اتصل بالمجد الجيلي (91) (أو الجبالي) (92) ، الذي لازمه مدة طويلة ، اخذا عنه الكلام ، والحكمة . واضطرّ حتى للانتقال معه عندما دعى الجيلي للتدريس بمواغة (93) ، واشتغل الرازي كذلك بعلم الكيمياء ، وأعزم به ، وضع في ذلك مالا كثيرا ، ولم يصل من وراء ذلك إلى نتيجة (94) . هذه هي المرحلة الأولى من حياته ، التي قضاها في بلاد الري ، والتي استطاع فيها أن يتحصّل على جانب مهم من العلوم الشرعية ، والأدبية والحكومية ، والملاحظ في هذه المرحلة أنه لم يتلق إلا على عدد قليل من المشائخ ، واتفق المصادر على هذا العدد ، يدل على أن معلوماتها استقتها من مصدر واحد . ويبدو لي أن وراء هذه القائمة عدد لا يحصى من المشائخ الذين أخذ عنهم الرازي ، ولازمهم مدة من الزمن ، خصوصا وأنه اشتهر بالرحلة في سبيل العلم ولوحظ وجوده في عدد من مراكز العلم في اسيا الوسطى .

(89) وقيل أخذ كذلك عن الطبرسي . راجع الصفدي 4 : 249 .

(90) ذكر ابن أبي أصيبعة أن محي الدين قاضي مرند حدثه أن ابن الخطيب درس الفقه بمرند على أبيه راجع أبي أصيبعة 3 : 34 السبكي 5 : 35 .

(91) هو صديق محمد بن يحيى الفقيه أحد تلامذة الإمام الغزالي ، راجع اليافعي 4 : 8

(92) راجع قسواتي 2 : 770

(93) راجع ابن أبي الصبيعة 3 : 35 ؛ ابن خلكان 4 : 250 ؛ أبي الفداء 3 : 112

(94) راجع القفطي ، 191 .

أحس الرازي بعد ذلك برغبة شديدة للرحلة ، تدفعه لذلك رغبات كثيرة من أهمها : اكتساب العلم ، واشفاء هذا العطش المتزايد ، الذي أخذ يشتد ، كلما توسعت الدائرة ، وبعدت النظرة . كذلك تجسيم وابرار هذه الافكار ، التي أخذت تعتلج في ذهنه ، تقودها الرغبة الشديدة ، في مناقشة هذه الفرق المختلفة ، التي لم تفهم التنزيه الإلهي ، ولم تقدر الله حق قدره .

زار الرازي بلاد خراسان مرة أولى (95) ، أين تمكن من الاطلاع على كتب أبي نصر الفارابي ، وأبي علي ابن سينا ، ثم قصد خوارزم ، وناظر علماءها من المعتزلة (96) ، فأخرجوه . فتوجه لبلاد ما وراء النهر (97) قاصدا بخارى أولا ، وفي طريقه زار مدينة سرخس (98) ، ونزل عند الطبيب عبد الرحمن بن عبد الكريم السرخسي ، الذي استضافه ، وبالف في اكرامه ، فأراد الرازي ان يرد المعروف بما لديه ، فأخذ يشرح له ما استغلق من الفاظ كتاب كليات القانون لابن سينا (99) وذكره في مقدمته ، وأثنى على عواطفه النبيلة . ومروا الرازي بسرخس يحدده ابن العبري (100) بسنة ثمانين وخمسمائة 580 / 1184 اي له من العمر تقريبا سبع وثلاثون سنة . ويبدو لي اننا نستطيع ان نسخلص شيئين من هذه الزيارة :

اولا : ان الرازي كان فقيرا حتى أن الضيافة أثرت عليه فلم يستطع رد الجميل إلا بما كان عنده من البضاعة العلمية .

ثانيا : أن الرازي في هذه الفترة من عمره بلغت به المكانة الحكمية ، حتى أنه أصبح قادرا على حل ما استغلق من كلام ابي علي ابن سينا .

(95) راجع القفطي ، 190 .

(96) راجع فنواي 2 : 770 .

(97) هي البلاد التي تقع وراء نهر سيحون . راجع ياقوت 4 : مجلد 1 ص 210 .

(98) انظر ابن العبري ، 418 ، 419 .

(99) انظر خليفة 2 : 1312 .

(100) راجع ابن العبري 418 / 419 .

واصل الرازي مسيرته نحو بلاد ما وراء النهر ، وأول بلاد زارها في المنطقة هي مدينة بخارى ، التي قصدتها لقضاء حاجة ، ولكنه خاب في قضاء هذه الحاجة (101) .

حكى القفطي أن أحد التجار روى له أنه رأى ابن الخطيب ببخارى مريضاً ، في بعض المدارس المجهولة ، وشكا له فقره ، وحاجته ، فجمع له بعض أموال الزكاة من بعض التجار (102) .

ورحلته لما وراء النهر هي التي ورد ذكرها في مناظرته ، التي حكى فيها أنه لما دخل هذه البلاد (103) ، زار بخارى ، ثم سمرقند ، ثم انتقل الى خجند ، فبناكت . واتفقت له في كل هذه البلدان مناظرات مع أفاضلها ، وأعيانها (104) .

وقد تواصلت هذه الزيارة على ما يظهر الى مابعد سنة 582 / 1186 (105) ، قضائها الفخر الرازي في المناظرات ، والمجادلات ، وكأن الرجل اشتهر بطول بقاءه في الجدل ، ومناقشته تقريبا لكل الفرق المخالفة . فكان استقبال القوم له ، يتمثل في تقديم من اشتهر عندهم بالعلم ، زد على هذا كثرة الفرق التي كانت موجودة في هذه المناطق .

والأرجح ان بلاد ما وراء النهر لما دخلها الفخر الرازي ، كانت تحت حكم الخوارز مشاه علاء الدين محمد بن تكتش 568-590 / 1172-1199 غير أنه لم يتصل به لوجوده بعاصمة ملكه خوارزم . ويبدو لي ان بخارى في هذه الفترة كانت تحت حكم دولة الخطا ، قبل ان تنظم للدولة الخوارزمية على يد علاء الدين .

(101) نفس المصدر 418 ، 419 .

(102) راجع القفطي ، 190 .

(103) راجع الرازي : المناظرات ، 2 .

(104) راجع الرازي : المناظرات ، 2 .

رجع بعد ذلك الرازي لبلاد الري ، اين عقد زواج ابنه مع بنتي طبيب صاحب ثروة ويسار ، ولما توفي الطبيب رجعت الأموال للرازي (106) وبذلك أصبح صاحب نعمة ويسار وكثرت أمواله ، حتى أنه استطاع ان يعامل شهاب الدين الغوري (107) 569-602 / 1173-1206 صاحب غزنة (108) في مقدار من المال ، ولما ذهب إليه لاستيفاء ماله بالغ في إكراهه ، واغدى عليه كثيرا من الخيرات والتعم .

قصده الرازي بعد ذلك بلاد خراسان ، التي كانت تحت حكم الدولة الخوارزمية ، واتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد تكش ، سادس أمراء الدولة الخوارزمية ، الذي حبس إليه المقام ببلاده ، وبني له مدرسة للعلم (109) وربما توجه منه رسه لا الى بلاد الهند (110) :

ويبدو لي أن مدينة هراة في ذلك الوقت كانت تحت حكم غياث الدين الغوري 558-599 / 1163-1203 ، الذي افتكها من علاء الدين محمد تكش سنة 571 / 6-1175 (111) . ولهذا فقول ابن أبي أصيبعة (112) أن علاء الدين منح دار السلطنة بمدينة هراة للمخر الرازي ، امر لا يتفق مع الأحداث التاريخية ، لان المفروض أن الإمام الرازي دخل هراة بعد سنة 582 / 1186 ، في حين أن غياث الدين افتكها من الخوارزميين قبل هذا التاريخ . أي سنة 571 / 6-1175 .

-
- (105) راجع الرازي : نفس المصدر ، 20
- (106) يتهم ابن خلكان الرازي بقوله « استولى على جميع أمواله » ويعتذر اليافعي عن ذلك بقوله « يحمل على الاستيلاء الشرعي من وصاياه ووكاله » راجع ابن خلكان 4 : 250 ، اليافعي 4 : 9 .
- (107) راجع ابن خلكان 4 : 250 ؛ أبي الفداء 3 : 112 ؛ الصفدي 4 : 249 ؛ اليافعي 4 : 9 ؛ السبكي 5 : 35 .
- (108) عاصمة الغزويين ومكانها إلى الجنوب الشرقي من عاصمة أفغانستان مدينة كابل وبينهما 120 كلم تقريبا . راجع الشابي ، 24 .
- (109) راجع قنواتي 2 : 770 .
- (110) راجع الصفدي 4 : 250 .
- (111) راجع بوسورط 2 : 1127 .
- (112) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 39 .

والغريب في الأمر أن الفخر الرازي استطاع الاتصال بالملكين الخوارمي ، والغوري ، رغم العداوة التي كانت بينهما ، إذ كل منهما يحاول التوسع في بلاد الشرق الاسلامي على حساب الآخر .

ثم كيف قبل منه علاء الدين معاملته لعدوه شهاب الدين الغوري في كمية من المال ، ربما استعملها في محاربة الدولة الخوارزمية وقد وقع الأمر فعلا

يظهر أن شخصية الرجال قد بهرت ملوك عصره ، وتجاوزت شهرته الحدود ، فعاش فوق الخلافات السياسية ، ومشاكل الحكم . وما يؤدي هذا أن الرازي لم يشر لهذه الأحداث التي كانت تتوالى ، وتتعاقب ، فتحول بلاد المسلمين الى أتون تصطلي فيه الشعوب الإسلامية .

وفي ظني أن الرازي كان يشعر أن الخطر الحقيقي لا يتمثل في هذه الخلافات ، الترابية ، وإنما الخطر المهدد هو هذه الفرق المخالفة التي دائما الصاق الشبه المختلفة بالشرعية الإسلامية . وتزرع الفرقة ، وتهدى جذور الانقسام بين جماعات المسلمين ، وأن أعظم مجهود يبذله العالم ، هو الدفاع عن العقائد الاسلامية في صورتها المشرقة ، كما جاء بها الإمام ابو الحسن الأشعري .

ويحكي المؤرخون أن الرازي تعالت شهرته بعد ذلك ، واقبل عليه الناس من كل مكان ، يسألونه ، ويستفيدون منه في العلوم المختلفة ، التي تبرز فيها ، وخاصة علم الكلام والحكمة .

وقد كانت تنقلاته من بلد الى اخر تكتسي صبغة هي أشبه بصبغة الملوك العظام ، حشم كثير ، وعديد من التلاميذ ، وأبهة لا مثيل لها . ربما ساهم الفخر الرازي في ابرازها ، وإظهارها تنكيلا بأعدائه وخصومه .

ولم يقتصر الاقبال على العامة والتلاميذ فقط ، بل ساهم فيه ملوك الغوريين أو الخوارزميين على حد سواء . وكان كل منهم يريد استجلابه

إليه ، حتى يتأيد به نظرا للمكانة العلمية الضخمة التي كان يتمتع بها الفخر الرازي . وسأله أحدهم أن يضع له كتابا في الأصول ، يقرأه فقال له بشرط أن تحضر درسي ، وتقرأه عليّ فوضع له الإمام الرازي المحصل (113) وكان السلطان يأتي إليه ، ويسمع منه درس المحصل ، وقصد الإمام فخر الدين بلدة هراة ، قادما من باميان في حشم كثير ، فاستقبله السلطان بها ، وهو حسين بن خرمين (114) ، ومعه السلطان محمد بن اخت شهاب الدين الغوري (115) ، وسلم كل منهما وجلسا في حلقة الشيخ .

وفي سنة 595 / 1198 قامت فتنة بفيروز كوه عاصمة الدولة الغورية ، لما قدم إليها الفخر من غورية باميان (116) ، فاستقبله غياث الدين ، وأكرمه ، وبني له مدرسة بمدينة هراة (117) قرب الجامع ، فاستنكر ذلك سكان فيروز كوه من الكرامية (118) ، ودبروا خطة للانتقام من الرازي ، بتنظيم مناظرة بينه (119) ، وبين إمامهم القاضي مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة ، وكانت نتيجة المناظرة اعتداء الرازي على القاضي ابن القدوة بالسب والشتم ومن الغد خطب ابن القدوة في الجامع ، وحرّض الكرامية على الإمام الرازي فقامت فتنة ، وثار الناس من كل جانب (120) ، فأرسل السلطان غياث الدين جماعة من عنده ، وسكنهم

(113) راجع الصفدي 4 : 254

(114) لم أعثر على اسم هذا السلطان الغوري في الجدول الذي أعده بسوورط في دائرة المعارف الإسلامية ولعله والي الغوريين على هراة .

(115) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 35 .

(116) فرع من فروع الدولة الغورية كان يحكمها في وقت الرازي بهاء الدين سام بن شمس الدين بن فخر الدين مسعود أول ملوك غورية باميان راجع بسوورط 2 : 1129 .

(117) راجع نفس المصدر السابق 2 : 1129

(118) إن أكثر سكان الدولة الغورية من الكرامية راجع ابن الأثير 9 : 247

(119) راجع تفاصيل المناظرة في ابن الأثير 9 : 247 ؛ وأبي الفداء 3 : 96 .

(120) وكان أشد الناس على الرازي ضياء الدين وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته راجع ابن الأثير 9 : 247 ؛ بسوورط 2 : 1129 .

ووعدهم باخراج الفخر الرازي ، فخرج من فيروز كوه ، وقصد مدينة هراة .

وفي مدينة هراة نفسها لم يستقر الرازي لان الكرامية واصلت حملتها وسكان هراة اكثرهم من الكرامية ، ولعل التعب الذي أحس به الفخر دفعه لتوجيه العتاب لاهل هراة بقوله

المرء مادام حيا يستهان به ويعظم الرزء حين يفتقد (121)

ولا ينعي الرازي على أهل هراة فقط ، وانما ينعي كذلك على أصحابه من أهل السنة ، كيف قعدوا عن نصرته ، وسكتوا في الرد على أعدائه ، وكأنهم يتهمون في عقيدته السنية ، ويشكون في انتمائه لمذهبهم ، رغم ما بذله من الجهد والاجتهاد في نصره عقيدة أهل السنة .

ويضيف لذلك بأن تلاميذه وتلاميذ والده في أنحاء العالم ، يدعون إلى الدين الحق ، والمذهب الأوحده . وابتلوا البدع الزائغة (122) ، والظلال المختلفة فطعن حساده في دينه تدفعه الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة .

وبعد واقعة الكرامية غادر الفخر الرازي مدينة هراة الى بلاد خراسان اين استقبله السلطان علاء الدين خوارزمشاه ابن محمد تكش (123) 596 — 617 / 1199 — 1219 . وبقي عند الخوارزميين أين كتب اخر كتبه تقريبا ، وهو كتاب المطالب العالية بجزجانية خوارزم بين ستي 603 / 1206 و 605 / 1208 (124) .

(121) راجع طاش كبرى زاده 2 : 120 .

(122) راجع الرازي : اعتقاد فرق المسلمين ، 92 ، 93 .

(123) راجع ابن الشحنة 12 : 115 ؛ الخوانساري ، 700 .

(124) يورد طاش كبرى زاده التواريخ الآتية في اتمام كتابه المطالب العالية :

القسم الأول : ذي القعدة سنة 603 / 1206 .

القسم الثاني : ربيع الأول سنة 605 / 1208 .

القسم الثالث : نفس الشهر والسنة .

القسم الرابع : جمادي الأولى سنة 605 / 1208 .

وأغلب المصادر تشير الى رحلاته العديدة ، التي قام بها ، وخاصة بعد أن أصبح ذا ثراء ، ونعمة ولكنها لا تمدنا بمعلومات عن زيارته لبعض البلاد العربية ، وحسب هذا فان الرازي لم يزر بلدا عربيا قط ، وهذا غريب من رجل في مستوى علمه وثرائه .

ويظهر لي أنه زار البلاد العربية ، واغفال المصادر لهذه الناحية ، هو كإغفالها لكثير من شيوخه . لأنها اعتمدت في الترجمة طريقا واحدا ، حتى انها اتفقت في تفاصيل حياته ، واختلافها إنما كان في احصائها لكتبه ومؤلفاته .

الى هذا الحد بقينا بدون أمل ، الى ان اخبرنا المرحوم الشيخ الفاضل ابن عاشور (125) ، أنه عثر خلال قراءاته لتفسير الفخر الرازي ، ما يثبت أنه زار البلاد العربية ، وفي خلال تقصينا لمفاتيح الغيب ، عثرنا على ما يثبت إشارة الشيخ الفاضل ابن عاشور .

فقد ذكر الرازي في ختام سورة ابراهيم عليه السلام أنه أتم هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة احدى وستمائة في صحراء بغداد (126) .

ويظهر انه قام بهذه الرحلة اثر خروجه من فيروز كوه ، وعودته إلى هراة ، فتوجه إلى صحراء بغداد ، ولا بد أنه زار عدة أماكن أخرى من العراق على الأقل .

ويبدو لي أنه تعمد في هذه الرحلة إخفاء نفسه ، لانه اتجه نحو طريق الله ، فاثّر ان يبقى النور يزداد توهجا كلما سمت النفس وهفت الروح .

القسم الخامس : نفس الشهر والسنة .

القسم السادس نفس الشهر والسنة .

راجع المصدر السابق 2 : 120 .

(125) راجع ابن عاشور ، 72

(126) راجع الرازي : التفسير 5 : 372

زد على هذا أنه قام بهذه الرحلة إثر وفاة ابنه محمد الذي أبنته ، وراثته ،
وطلب له الدعاء في السور المتقدمة : يونس (127) ، وهود (128) ،
ويوسف (129) ، والرعد (130) .

واثر الانتهاء منها بداله أن يتوجه الى خوارزم (131) سنة 1206/603
تقريبا ، مارا بهراة ، وبقي في بلاد الخوارزميين إلى سنة 605 / 1208 ثم
عاد مرة أخرى إلى هراة (132) .

وفي سنة 606 / 1209 أحس الفخر الرازي بدنو أجله فأملى وصيته
المشهورة (133) على تلميذه ابراهيم بن أبي بكر بن علي الأصفهاني يوم
الاحد 21 محرم . وامتد به المرض إلى أن توفي يوم العيد غرة شوال من
السنة المذكورة (134) . بعض مترجميه يؤكدون أنه سم من طرف جماعة
الكرامية نظرا للعداوة التي كانت مستحكمة بينه وبين هذه الطائفة
والقفطي (135) ، وابن العبري (136) ينقلان أن الرازي دفن في منزله خفية
خوفا من انتقام الجماهير الذين كانوا ينسبون إليه ضلالات ويؤكد هذا
وصيته التي يوصي فيها تلاميذه أن يبالغوا في اخفاء موته (137)

-
- (127) راجع الرازي : التفسير 5 : 50 .
(128) نفس المصدر 5 : 149 .
(129) نفس المصدر 5 : 258 .
(130) نفس المصدر 5 : 313 .
(131) راجع طاش كبرى زاده ، 2 : 120 .
(132) راجع الرازي : التفسير 7 : 345 .
(133) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 41 - 42 .
(134) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 42 ؛ ابن خلكان 4 : 252 .
وقال فريق آخر أنه توفي في ذي الحجة . راجع ابن تغري بردي ، 6 : 198 .
والأول أصح لأن ابن أبي أصيبعة كان أقرب من غيره ، وابن خلكان عرف بالدقة
في ضبط تواريخ الوفيات .
(135) راجع القفطي ، 190 .
(136) راجع ابن العبري ، 418 ، 419 .
(137) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 42 .

ومهما كان الأمر سواء دفن الرازي في منزله ، أو في الجبل القريب من مدينة هراة فان قبره موجود إلى الآن في نفس المدينة (138) .

وقد بقيت عائلة الرازي في مدينة هراة ، حتى داهمها جنكيز خان ، فأعطى الأمان لاولاد الإمام بسعي من الوزير الملك العلوي (139) زوج ابنة الفخر الرازي .

خصوم الرازي

من الطبيعي أن يبتلى الرازي بعدة خصوم نظرا لثقافته الضخمة ، وموقفه من العلوم في عصره ، واشتغاره بالجدل مع الفرق المخالفة للمذهب الأشعري وأصحاب الديانات الأخرى ، التي كانت تعج بها بلاد فارس ، وخراسان ، وما وراء النهر .

وأول خصوم الرازي هي الفرق المخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة ، فيما يخص العقائد . وكان الرازي شعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فاصطدم مع كل فرقة مست التنزيه الإلهي في أي صورة من صوره ، التي قررها علماء المذهب الأشعري .

والسبكي (140) قد أورد لنا قائمة الفرق التي ناقشها الرازي ، وجادلها وانتصر عليها ، غير أن أبرز نقاش ، وأعنف معركة دارت بين الرازي وبين الكرامية (141) ، الذين كانوا يعتقدون بأن الله جسم لكنه لا كالأجسام ، والذي جعل الكرامية تقول بالجسمية ، انها امنة بالجهة

(138) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 38

(139) هو وزير خوارزم شاه جلال الدين تكش بن محمد بن تكش الشهير بمنكبرتي . راجع العمادي ، 27 .

(140) راجع السبكي 5 : 34 - 35 .

(141) تنسب الكرامية إلى اسم مؤسسها محمد بن كرام ، المتوفي سنة 255 / 861 راجع الفصل الذي كتبه النشار عن الكرامية 1 : 617 .

ولا يمكن للجسم أن يكون إلا في جهة (142) ، ويزعم الكرمية كذلك من ان الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان ، دون القلب . وأن المنافقين الذين كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين والكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان (143) .

والذي جعل الرازي يصطدم بالكرامية هو أمران :

أولا : انها كانت منتشرة في خراسان ، وبلاد ما وراء النهر ، هذه الأماكن التي كانت موطن الحشوية والمشبهة ، والمجسمة من قديم الزمان .

ثانيا : أنها مست جوهر العقيدة الاسلامية في الصفات وحقيقة الإيمان ، ولهذا كانت أخطر فرقة تصطدم مبادئها طولا وعرضا مع عقيدة أهل السنة والجماعة . وهذا ما جعل الرازي يستقر في وكرها ، ويحول الناس عنها إلى مذهب أهل السنة .

ومن خصوم الرازي الحنابلة ، وهم في ظني من الكرامية لان الرازي في رده عليهم ، نعتهم بالمشبهة . كانوا يكتبون له أوراقا تتضمن شتمه ، ولعنه ، واتهام عائلته بأبشع الأوصاف (144) ، وكان يرد عليهم بقوله « هذا أحسن من قولي إن الباريء سبحانه وتعالى جسم ولا شبهته بخلقه » (145) .

ومن خصوم الرازي بعض أهل الحديث ، وأول من اتهمه منهم الذهبي المتوفي سنة 748 / 1347 في ميزان الإعتدال (146) الذي اعترف بتفوق في العقلیات ، ونسب إليه تشكيكات على مسائل تعتبر من أصول الدين .

(142) نفس المصدر 1 : 619 .

(143) الأشعري 1 : 205 .

(144) من ذلك قولهم « إن ابنه يفسق ويرني وإن امرأته كذلك . راجع الصفدي 4 : 250 .

(145) راجع الصفدي 4 : 250 .

(146) راجع الذهبي 3 : 340 .

كما نسب إليه كتاب « السر المكتوم في مخاطبة النجوم » (147) ، ويورد الصفدي المتوفي سنة 764 / 1263 أن حجة خصومه تنحصر في كونه أكثر من أيراد شبه ، وأدلة الخصوم ، ولا يجيب عنها باقناع كما أنه صرف الناس عن الحديث ، وشغلهم بكتب أرسطو ، وابن سينا (148) .

وقد تصدى للدفاع عن الرازي من اتهامات الذهبي تاج الدين السبكي المتوفي سنة 771 / 1370 الذي أذكر أن يعد الرازي من الضعفاء لأنه لا رواية له (149) ، وأما كتاب السر المكتوب في مخاطبة النجوم ، فهو مكذوب عليه الصقوه به ليشتهر الكتاب وعلى فرض نسبه إليه فهو ليس بسحر .

كما ذكر الرازي من المحدثين ابن حجر المتوفي سنة 832 / 1428 في لسان الميزان ، أورد كلام الذهبي بنصه (150) ، ورد السبكي عليه ، ثم استعرض لنا مأخذ عن الرازي ذكرها كثير من العلماء منها :

قولهم إنه يورد شبهة المخالف قوية صامدة ، ثم حجة أهل السنة السنة على غاية من الوهاء ، ويعلل ابن حجر ذلك بأن الإمام كان يبذل أقصى مجهوده في تقرير دليل الخصم ، ثم تضعف قواه عندما يبدأ بالرد والنتيجة هي قوة دليل الخصم ، وضعف دليل أهل السنة (151) .

وكان ابن حجر استحي من الهجوم مباشرة على الفخر الرازي ، فاثران ينقل كلام خصومه ، ولكنه بجانب هذا أغفل كلام مناصريه (152) .

(147) يقول الذهبي « إنه سحر صريح ولعله تاب من تأليفه » راجع الذهبي 3 : 251 . ويقول خليفة إنه رأى في كتاب أنه للحوالي أبي الحسن علي بن أحمد المغربي راجع خليفة 2 : 985 ، 990 .

(148) راجع الصفدي 4 : 251

(149) يستدل السبكي على تحامل الذهبي على الرازي أنه ذكره في حرف اللقاء وكان من حقه أن يذكره في اليم باعتبار اسمه محمد أو بما استشهد به وهو ابن الخطيب . راجع السبكي 5 : 36 .

(150) راجع ابن حجر 4 : 427 .

(151) راجع نفس المصدر : 428 .

(152) راجع نفس المصدر 4 : 427 - 429 .

أهمل المؤرخون تلاميذ الرازي ، ولم يذكروا منهم إلا القليل ، ولعل السبب في هذا هو النسبة التي أصيب بها العالم الإسلامي عن طريق الغزو المغولي لبلاد الشرق الإسلامي ، التي كانت سببا في ضياع أكثر مؤلفات فلم يصلنا منها إلا القليل ، كذلك قضى هؤلاء الغزاة على جيل كامل من علماء المسلمين ، فيهم عدد ضخم من تلاميذ الإمام الرازي .

ولم يبق من تلاميذ الإمام الا من استقر في بلاد بعيدة عن الغزو المغولي التتري (153) ، وقد ذكر لنا ابن أبي اصيبعة عددا ممن تتلمذوا على الإمام ، وأخذوا عليه : منهم قطب الدين ابراهيم بن علي بن محمد السلمي ، الذي انتقل من المغرب الى مصر ثم سافر الى بلاد العجم ، وأخذ عن الفخر واشتهر هناك ، وقد قتل القطب المصري بنيسابور عندما احتلها التتر .

ومنهم شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي (154) الذي لقبه ابن اصيبعة بسيد الحكماء ، وذكر انه اجتمع به فوجده قوي الذكاء كثير العلم راه يوما وقد أتى له تلاميذه بكتاب بخط ابن الخطيب ، فصار يقبله ويضعه على رأسه توفي سنة (155) 602 / 1205 بمدينة دمشق

ومن تلاميذ الفخر الرازي شمس الدين أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوي (156)، تردد عليه ابن أبي اصيبعة وقرأ عليه التبصرة لابن سهلان . له تمة التفسير توفي بحمي الدق بدمشق سنة 637 1239 (157) .

(153) راجع ابن أبي اصيبعة 3 : 45 - 46 .

(154) خسروشاه ضيعة قريبة من تبريز . راجع ابن أبي اصيبعة 3 : 283 .

(155) راجع نفس المصدر 3 : 283 - 285 .

(156) خوي بضم الخاء وفتح الواو وتشديد الياء بلد مشهور من أعمال اذربيجان . ياقوت ج 2 مجلد 2 ص 502 .

(157) راجع ابن أبي اصيبعة 3 : 280 ، 281 .

ويذكر ابن العبري كذلك قائمة في تلاميذ الرازي ، يذكر أنهم موجودون في زمانه ، كزين الدين الكشي (158) ، وقطب الدين المصري بخراسان ، وأفضل الدين الخونجي (159) بمصر ، وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق (160) ، وأثير الدين الأبهرى (161) بالروم ، وتاج الدين الأرموي (162) بقونية ، وشهاب الدين النيسابوري (163) .

والملاحظ أن تلاميذ الرازي ساروا على نفس المنهج الذي سار عليه ، حتى كانت تاليفهم تشابه تاليفه ، وطريقتهم تتماشى مع طريقته ، فاستطاعوا بذلك تجميع بعض مؤلفاته . فأتم الخوي تفسيره ، والخسروشاهي أتم كتاب الآيات البيّنات (164) .

وتلاميذ الرازي الذين لم يلحقهم أذى المغول ، هم الذين الذين استطاعوا نشر مؤلفاته حتى عمت العالم الإسلامي ، واستفاد منها الناس شرقا وغربا ، وأبرزوا طريقته الجديدة في دراسة العلوم ، فاشتهرت ، ورحل الناس لأخذها من تلاميذه . ولم تقتصر حركة الأخذ على المشرق فقط ، وإنما تجاوزته إلى المغرب ، فقد رحل القاضي أبو القاسم ابن زيتون إلى المشرق مرتين سنتي 648 / 1251 و 656 / 1258 وفي كل مرة كان يتوقف بسوريا ، ومصر ، للأخذ عن تلاميذ الفخر الرازي . ولما رجع إلى تونس أظهر تاليف ابن الخطيب ، فأقبل الناس عليها من جميع أنحاء المغرب (165) .

(158) الصمدي 225

(159) توفي بالقاهرة سنة 646 / 1248 راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 199 ، 200

(160) كان الملك الناصر ابن الملك العادل بن أيوب يتردد إلى شمس الدين الخسروشاهي .

(161) راجع ابن العبري ، 445 .

(162) الصمدي 225

(163) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 35 .

(164) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 285 .

(165) راجع ابن القنفذ ، 30 ، برنشفيك 2 : 289 .

(د) مؤلفاته

لقد تعددت مؤلفات الرازي نظرا لتعدد الاختصاصات التي شارك فيها الرجل ، ونظرا للرسالة التي أخذ على نفسه أن يقوم بها ، وهي نشر المفهوم نشر المفهوم الجديد لأغراض العلوم . وإلى جانب ذلك تركيز مفهوم فلسفي للشريعة الإسلامية ، حتى تكون الفلسفة خادمة للشريعة ، وبذلك تقع مواجهة شبه الفلاسفة ، والحكماء التي أوردوها ضد الشريعة الإسلامية :

وتعدد الواجهات التي خاضها الرازي ، اقتضت صياغة جديدة في طريقة بسط العلوم ، التي اشتغل بها تخالف طريقة القدماء ، واقتضى ذلك إبراز هذه الطريقة الجديدة في كتاب ، وهذا ما جعل كتب الرازي تتعدد وتنشر .

وسلك المترجميون القدماء للرازي طريقة عد الكتب بدون تقسيمها إلى فنونها من هؤلاء : القفطي (166) المتوفي سنة 646 / 1248 التي أوصلها إلى 63 كتابا ، وابن أبي أصيبعة (167) المتوفي سنة 668 / 1269 التي أوصلها إلى 67 كتابا ، وابن خلكان (168) المتوفي سنة 681 / 1282 ، الذي اقتصر على ثلاثين مصنفًا فقط .

والصفدي (169) المتوفي سنة 764 / 1326 الذي الذي أوصلها إلى 65 كتابا . والياضي (170) المتوفي سنة 763 / 1330 الذي ذكر أهمها 15 كتابا فقط . والسبكي (171) المتوفي سنة 771 / 1370 اقتصر على 22 كتابا .

(166) راجع القفطي ، 191 ، 192 .

(167) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 44 ، 45 .

(168) راجع ابن خلكان 4 : 250 .

(169) راجع الصفدي 4 : 256 .

(170) راجع الياضي 4 : 8 .

(171) راجع السبكي 5 : 35 .

والسيوطي (172) المتوفى سنة 911 / 1505 ذكر 8 كتب فقط .

وطاش كبرى زاده (173) المتوفى سنة 968 / 1561 الذي اقتصر على كتاب فقط . وأخيرا ابن العماد (174) المتوفى سنة 1089 الذي ذكر 11 كتابا . أما المحدثون فقد تناولوا مؤلفات الرازي حسب أغراضهم ، فقد استعرضها خليفة بحسب الفنون ، ولهذا جاءت مبشرة في كتابه ، ومع هذا تعتبر احصائيته من أوفى ما كتب حول تأليف الرازي . وهذه الأماكن التي ذكرت فيها تأليف الرازي قد أحصاها كحالة (175) في معجمه وأوصلها إلى 51 موضعا في فنون مختلفة .

أما بروكلمان (176) فقد قسم مؤلفات الرازي التي توجد منها اثار مخطوطة بالمكتبات ، أو مطبوعة بحسب الفنون ، وأوصلها إلى 13 فنا وهي :

- (1) التاريخ
- (2) الفقه
- (3) القرآن
- (4) علم الكلام
- (5) فلسفة
- (6) علم النجوم
- (7) معرفة الكف
- (8) علم البيان
- (9) معارف متنوعة

(172) راجع السيوطي ، 39 .

(173) راجع طاش كبرى زاده 2 : 118 .

(174) راجع ابن العماد 5 : 21 .

(175) راجع كحالة 11 : 79 .

(176) راجع بروكلمان 2 : 312 ؛ ملحق 2 : 430 .

- (10) طب
- (11) علم الفراسه
- (12) كيمياء
- (13) علم المعادن

وجاء بعده سامي النشار (177) الذي حاول أن يجمع جميع الإشارات التي وردت في المصادر التي ترجمت للرازي ، واستعرضت قائمة كتبه ورتبها حسب الفنون الآتية :

- تفسير : خمس كتب .
- علم الكلام : أربعين كتابا .
- الحكمة والفلسفة : ستة وعشرون كتابا .
- العلوم وآداب العربية : سبعة كتب .
- الفقه وأصول الدين : خمسة كتب .
- الطب : سبعة كتب .
- الطلسمات والعلوم الهندسية : خمسة كتب .
- التاريخ : كتابان (178) .

ولما كلف الاب قنوتاي بكتابة فهرس عن الرازي في دائرة المعارف الاسلامية ، النشرة الثانية (179) ، حلل في هذا الفصل بعض كتب الرازي المطبوعة ، واقتصر على اثني عشرة كتابا وهي :

- (1) أساس التقديس
- (2) لوامع البينات في الأسماء والصفات (180)
- (3) شرح الإشارات

(177) في تحقيقه لكتاب الرازي « اعتقادات فرق المسلمين والمشركيين » .

(178) راجع النشار 27 - 34 .

(179) صدرت هذه النشرة سنة 1965 .

(180) طبع بمصر

- 4) لبائب الإشارات
- 5) محصل افكار المتقدمين والمتأخرين (181)
- 6) المعالم في أصول الدين
- 7) مفاتيح الغيب
- 8) المناظرات
- 9) اعتقاد فرق المسلمين والمشرّكين
- 10) المباحث المشرقية (182)
- 11) كتاب الفراسة (183)
- 12) كتاب الأربعين (184)

ولكنه عاد ، وكتب الفصل مرة ثانية معربا في مجموع طه حسين ، الذي صدر بمناسبة بلوغه السبعين سنة (185) وفي هذه المرة قدم لنا مؤلفات الرازي بعد أن جرد جميع المصادر التي أشارت لمؤلفاته وأثبت بجانب كل تأليف رموز تشير للمصادر التي ذكرته ، مع الإشارة لأرقام النسخ المخطوطة في مكتبات العالم ، وتحليل لمحتويات الكتب التي طبعت . وأمكن لقنواتي أن يعثر عليها مع الإشارة لمكان الطبع ، وتاريخه . ولهذا يعتبر مقال قنواتي أو في دراسة عن مؤلفات الرازي صدرت لحد الآن (186) وقد عدد هذه المؤلفات فأوصلها إلى 134 كتاباً ، متبعا في ذلك النظام الأبجدي ، وأخيرا وضع جدولاً تفصيلياً (187) فيه الكتب المختلفة للفخر الرازي ، والمصادر التي أشارت له .

-
- (181) راجع قنواتي 2 : 771 .
 - (182) نفس المصدر 2 : 772 .
 - (183) حققه وترجم له الدكتور يوسف مراد .
 - (184) نفس المصدر 2 : 773 .
 - (185) راجع قنواتي : مجموع طه حسين ، 193 .
 - (186) نفس المصدر 202 - 232 .
 - (187) اقتصر في هذا الجدول على ذكر القفطي ، وابن أبي أصيبعة ، وابن خلكان ، والصدفي ، وابن العماد ، وطاش كبرى زاده ، وبروكلماز ، وأهمل خليفة مثلاً : راجع نفس المصدر 232 .

والملاحظة أن أكثر مؤلفات الرازي في الكلام ، والحكمة ، والفلسفة ، وقليل منها في التفسير ، وتعليل ذلك أن مؤلفات الرازي تماشى مع تطورات حياتية الفكرية اذ أنه قضى الجانب الأكبر من حياته العلمية في معركة الكلام ، ورد مفتريات الفرق ، ومناظرة اليهود ، والنصارى ثم في آخر حياته اتجه للتفسير ، وللقمران باعتباره المخلص الأخير بعد الجولة الواسعة التي قام بها الرازي في علوم عصره .

موقفه من علوم عصره

لقد كان للرازي موقف بالنسبة لعلوم عصره ، وهذا الموقف هو الذي دفع بمؤرخي العلوم الى جعل ابن الخطيب حدا فاصلا بين ما تعودته الناس قبله ، وما أصبحت عليه العلوم بعد تناوله لها .

ففي أصول الفقه لخص الرازي في كتابه المحصول الكتب الأربعة ، التي تعتبر قواعد هذا الفن ، وهي البرهان لإمام الحرمين الجويني (188) ، والمستصفي (189) للامام الغزالي ، وهما من الأشاعرة ، وكتاب العهد للقاضي عبد الجبار (190) ، وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري (191) ، وهما من المعتزلة

كما لخص هذه الكتب الأربعة كذلك سيف الدين الآمدي (192) في كتابه الأحكام (193) ، غير أن ميزة الرازي أنه أكثر مز الأدلة ، والاحتجاج (194) .

(188) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني المعروف بإمام الحرمين . 1028/419 - 1085/478 . السبكي 3 : 283-249 .

(189) أنظر خليفة 1673 .

(190) أنظر الزركلي 4 : 47 .

(191) أنظر خليفة 1732 .

(192) هو سيف الدين أبو الحسن علي ابن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي . توفي بدمشق سنة 631 / 1233 . راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 286

(193) أنظر خليفة 17 .

(194) راجع ابن خلدون ، 817 .

أما في علم الكلام فقد كان موقفه أوضح ومجهوده أبرز، إذ أنه قدم لنا علم الكلام في صورة جديدة ، تختلف عن طريقة الأقدمين ، التي بدأت بأبي الحسن الأشعري الذي كان سببا في تدعيم مذهب أهل السنة بالأدلة العقلية ، دفعا لشبهات المبتدعة ، التي أثاروها ، ونفيهم للصفات المعنوية . وجاء بعده أبو بكر الباقلاني فوضع المقدمات العقلية ، التي تتوقف عليها الأدلة مثل اثبات الجوهر الفرد ، والخلاء ، وجعل هذه القواعد تتبع العقائد في وجوب اعتقادها لتوقف أدلة عليها ، وبطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول ، ولم يأخذ بهذه الطريقة المتكلمون لمخالفتها ، ومباينتها للشرعة الإسلامية ، وعقائدها (195) .

ولما انتشر علم المنطق ، وأقبل عليه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية ، واعتبروه قانون الأدلة ، ومعيارا للمقدمات ، نظروا في قواعد الأقدميين ونقضوا كثيرا منها بالأدلة والبراهين المنطقية ، فصارت هذه الطريقة تسمى بطريقة المتأخرين ، وهي مخالفة للطريقة الاولى ، وأدخلوا فيها كذلك الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه العقيدة الإسلامية (196) .

وإذا كان الغزالي أول من كتب في هذه الطريقة ، فإن الإمام الرازي أول من اتبعه ، وقف أثره . ويظهر ذلك واضحا في كتابه المباحث (197) المشرقية الذي يعتبر من أعظم كتب العقيدة ، التي استخدمت الفلسفة ورغم أن الرازي استقى كثيرا من شفاء ابن سينا (198) ، وكتب الفرابي ، إلا أنه حافظ على موقفه الشخصي .

غير أن الأمر اختلط بعد ذلك ، وامتزجت مسائل الكلام بقضايا الفلسفة ، حتى أصبح يعسر التفريق بينهما ، كما فعل البيضاوي في الطوالع (199) ، ومن جاء بعده من علماء العجم .

(195) راجع ابن خلدون ، 834 ، 835 .

(196) نفس المصدر ، 837 .

(197) راجع الرازي : المباحث المشرقية 1 : 2 ، 3 .

(198) راجع ابن خلدون ، 921 .

(199) نفس المصدر ، 921 .

وهذه الطريقة قد تفيد طلبة العلم في معرفة المذاهب ، والرد عليها أما بقية الناس فعليهم بطريقة السلف ، أعني طريقة المتقدمين ، ومن أراد التبحر في قضية العقائد لمعرفة « ردود المتكلمين على الفلاسفة فعليه بكتب الغزالي ، والإمام الرازي .

وللفخر الرازي مواقف جديدة بالنسبة لبقيّة العلوم كالمنطق (200) ، وتفسير القرآن ، وقد لاقت هذه الطريقة الجديدة اقبالا كبيرا في أطراف العالم الإسلامي ، وشاعت ، وأطلق عليها الناس عدة ألقاب كقولهم « طريقة المتأخرين » أو طريقة المعاحم

(3) الرازي والتفسير

اتجه الرازي للتفسير في أواخر أيامه بعد أن مارس العلوم العقلية وجربها ، وبعد أن تبين له أن العلم علمان : الأول هو الذي نتجه به نحو اثبات العقائد ، والرد على الفرق الضالة ، وأصحاب الديانات الأخرى بواسطة علم الكلام ، والعلم الثاني هو لأنفسنا ، وهو خفقة من نور قضى ظلام وجودنا ، فاذا الإنسان مطمئن اطمئنانا عاطفيا .

والرازي فروصيته المشهورة (201) يبرز هذا الاتجاه ، عندما يصرح بأنه تأمل الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما راها تشفى غليلا، وأن أصبح الطرق طريق القرآن ، الذي يلخص في كلمات بليغة رائعة ما خصص له علماء الكلام التأليف الضخمة .

فهو يقول في التنويه « والله الغني وأنتم الفقراء » (202) و « ليس كمثله شيء » (203) و « قل هو الله أحد » (204) ويقول في الإثبات « الرحمن »

(200) نفس المصدر 834 - 837 .

(201) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 41

(202) محمد : 38 .

(203) الشوري : 11 .

(204) الاخلاص : 1 .

على العرش استوى» (205) و «يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ» (206) «لِئَلَّيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» (207) وغيرها من الآيات التي توحى بأن كل ما هو الأكمل والأفضل والأعظم فهو لك ، ولأكل ما هو عيب ونقص فأنت منزّه عنه (208) . وحسب عادة المؤرخين في ربط التحولات الاجتماعية العظيمة بحدث بسيط ، ذكروا السؤال الذي وجهه المتصوف للإمام الرازي ، عندما دخل هراة (209) ، وهو قوله : بما عرفت الله قال له بمائة برهان ، فأجاب الرجل البرهان لإزالة الشك ، والله قذف في قلبي نورا لا يدخل معه الشك ، فلا حاجة لي بالبرهان (210) . فأثر هذا الكلام في الرازي ، ودخل خلوته ، واتجه نحو التصوف ، وبعد خروجه من الخلوة ، بدأ في تصنيف تفسير سورة القاتحة .

وهذه الروح الصوفية التي ختم بها الرازي حياته ، نلمسها في الدعاء الذي كان يختم به خواتم سوره ، فهو في ختام سورة النحل «الحق عزيز والطريق بعيد ، والمركب ضعيف ، والقرب بعد ، والوصل هجر ، والحقائق مصونة ، والمعاني في غيب الغيب محصونة والأسرار فيها وراء العز مخزونة ، وبيد الخلق القليل والقال ، والكمال ليس إلا لله ذي الإكرام والجلال» (211)

ولما اتجه الرازي للتفسير ، أراد انتهاج طريقة التشكير من المؤلفات كما فعل في علم الكلام ، والحكمة ، والفلسفة ، ولكن المنية عاجته ، فاقصر على هذه الكتب ، ولو امتدّ به العمر لو اصل التأليف في هذه المادة .

(205) طه : 5 .

(206) النحل : 50 .

(207) فاطر : 10 .

(208) أنظر الرازي : التفسير 1 : 3 .

(209) أنظر الرازي : التفسير 1 : 3 .

(210) راجع طاش كبرى زاده 2 : 123 .

(211) راجع الرازي : مفاتيح 5 : 540 .

وأهم مؤلفات الرازي في التفسير :

- (1) كتاب تفسير سورة البقرة على الوجه النقلى لا العقلى (212)
- (2) رسالة في التنبيه على بعض الأسرار المودعة في القرآن (213)
- (3) تفسير أسماء الله الحسنى (214)
- (4) كتاب تفسير سورة الفاتحة (215)
- (5) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (216)
- (6) أسرار التنزيل وأنوار التأويل (217)
- (7) درة التأويل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات (218)
- (8) تفسير سورة الإخلاص (219)
- (9) الآيات البينات وهي رسالة في الآيات المتشابهات (220)

أ) التفسير العلمى

هو التفسير الذي يحكم الإصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم ، والآراء الفلسفية (221) منها . ومن عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم أدرك الصحابة أن القرآن بحر لا ساحل له.

-
- (212) ذكره ابن أبي أصيبعة 3 : 44 ؛ الصفدي 4 : 253 .
 - (213) راجع ابن أبي أصيبعة 3 : 45 ؛ الصفدي 4 : 253 .
 - (214) ذكره القفطى 191 ؛ اليافعى 4 : 9 ؛ الصفدي 4 : 256 .
وسماه خليفة لوامع البيانات في شرح أسماء الله تعالى والصفات .
 - (215) ذكره القفطى ، 191 ؛ ابن أبي أصيبعة 3 : 44 .
 - (216) ورد ذكره في أغلب المصادر .
 - (217) ذكره القفطى ، 191 ؛ الصفدي 4 : 253 ؛ وجمله خليفة في غير التفسير راجع خليفة 1 : 83 .
 - (218) راجع خليفة 1 : 739 ؛ فنواتي : ذكرى ، 228 .
 - (219) راجع خليفة 1 : 449 لم يذكرها فنواتي في جدول له لأنه لم يعتمد خليفة وكان من حقه أن يعتمد .
 - (220) ذكرها خليفة 1 : 204 وأهلها فنواتي في عده لكتب الرازي .
 - (221) راجع الخولي 5 : 357 .

وفي هذا يقول علي كرم الله وجهه « لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب » وقال العلماء « أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم » (222) . والعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل ، وصفاته . وفي القرآن شرح لذاته ، وأفعاله ، وصفاته (223) . فنظرية احتواء القرآن على جميع العلوم نستخلصها من الرموز ، والإشارات ، وثنايا الآيات موجودة من عهد الرسول عليه السلام .

ولعل الغزالي أوفى من بسط القول في هذا المضممار ، فقد أشار الى أن القرآن يشير الى مجامع العلوم كلها ، وكل ما أشكل فهمه على الناس ، واختلف فيه الخلاق ، ففي القرآن رموز ، ودلالات عليه (224) .

وبذلك ظهرت اثار الثقافة الاسلامية بصيرة عامة في تفسير القرآن ، وبرأت الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين في اثار بعض المفسرين .

واستمرت هذه النزعة في التفسير العلمي ، وأصبحت وجهها من وجوه الإعجاز القرآني ، وسبيلا لاعتبار الاسلام صالحا لمختلف ظروف الحياة الإنسانية .

وظهر هذا الإتجاه واضحا جليا في محاولة الفخر الرازي التي تعتبر بحق أروع وأنجع تجربة في استنتاج كثير من العلوم من الآيات القرآنية .

وقد أنكر بعض العلماء هذا الإتجاه نحو التفسير العلمي للقرآن ، وعلى رأسهم أبو اسحاق الشاطبي (225) ، الذي ادعى ان السلف الصالح من الصحابة والتابعين كانوا أعرف بالقرآن وبعلموه ، ولم يصلنا أن أحدهم تكلم في شيء من هذا ، ولو كان لهم فيه رأى لوصلنا ، وذلك دليل على أن القرآن

(222) راجع الغزالي 1 : 300 .

(223) نفس المصدر 1 : 300 .

(224) نفس المصدر 1 : 301 .

(225) أنظر في ترجمته كحالة 1 : 118 .

لم يقصد تقرير شيء مما زعموا . نعم هو تضمن علوماً من جنس علوم العرب ، فوافق بعضها كعلم النجوم (226) ، والأنواء (227) ، وأوقات نزول المطر ، وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح ، وعلم التاريخ ، وأخبار الأمم الماضية (228) واستنكر علوماً أخرى كعلم العيافة ، والزجر ، والكهانة ، وخط الرمل (229) . والشريعة الإسلامية عندما صححت أو أبطلت قد تعرضت لما عرف العرب وألفوه ، ولم تخرج عن ذلك وكثير من الناس أضافوا للقرآن كل علم جاء به المتقدمون أو المتأخرون (230) . وهذا لا يصح عند تحليل المقاصد التي من أجلها نزل كتاب الله .

ويدوا لي أن تحميل القرآن ما لا يطبق من العلوم الكونية أمر غير ممكن ، وقصره كذلك على ما عند العرب من مألوفها أمر لا سبيل إليه ، ولكن علينا أن نفسر القرآن تفسيراً طبيعياً ، وكلما تعرض لشيء من قضايا الكون أو لعلم من العلوم الأخرى ، تعرضنا لذلك دون محاولة تطبيق آيات القرآن على النظريات العلمية التي ربما ظهر بطلانها في يوم من الأيام

(ب) مفاتيح الغيب (231)

تؤكد الرازي أن الحكمة القرآنية هي أسلم ، وأمتن من جميع الحجج الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، وأن ما احتواه القرآن من طرق حكمية ،

(226) الشاطبي 2 : 71 .

(227) نفس المصدر 2 : 73 .

(228) نفس المصدر 2 : 73 .

(229) نفس المصدر 2 : 74 .

(230) نفس المصدر 2 : 79 .

(231) طبع مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير عدة طبعات .

بإتلاف 1279 - 1289 ؛ 6 مجلدات .

اسطنبول 1308 / 1890 ؛ 8 مجلدات بالهامش تفسير أبي السموذ .

الميرة : 1310 / 1892 ؛ 8 مجلدات بالهامش تفسير أبي السموذ .

وقد أعيدت هذه الطبعة سنة 1324 / 1906 - 1327 / 1909

القاهرة 1352 / 1933 ؛ 32 جزءاً تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .

البيهة القاهرة 1354 - 1357 / 1935 - 1938 ؛ 32 مجلداً .

وقد اعتمدت طبعة اسطنبول

تجاوز بكثير ما يبحثه المشتغلون بالعلوم الحكيمة الفلسفية (232) ، ولكن لا بد من تفجير هذه الطاقات الكامنة في الكتاب العزيز ، ووجوب الابتعاد عن طريقة القدماء المعطلة لأهداف القرآن الحقيقية ، التي تقتصر على المسائل النحوية والبلاغية ، ومباحث القراءات وأخيرا تستخلص بعض القضايا الفقهية ، وتروى أشهر أقوال العلماء في المسألة ، وبهذا الاعتبار يصبح القرآن أداة استشهاد ، بدلا من أن يكون منبع الهداية ، والحكمة ، والتفكير السليم ،

(ج) منهجه في التفسير

كان الفخر الرازي يؤكد دائما أن سورة الفاتحة وحدها يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها آلاف المسائل ، فاتهمه بعض حساده ، ونسبوه للمغالطة ، فاضطره ذلك أن يبرز في معرض التطبيق ، ما كان أثبتة في مجال النظر ، وشرع في تفسير سورة الفاتحة . وعقد فصلا في أول الكتاب بين فيه كيفية استنتاج المسائل المختلفة من سورة الفاتحة .

فالحمد لله جملة مكونة من كلمتين : الحمد على النعمة ، لا يمكن الا بعد معرفة النعمة ، وأقسام نعم الله بدون تحديد ، كما قال الله تعالى « وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » (233) . والإنسان مكون من بدن ونفس والأطباء قد اكتشفوا أن بدن الإنسان مخلوق من خمسة آلاف نوع من المنافع ، والمصالح . وأن هذه المنافع والمصالح هي بالنسبة للمجهول كقطرة من بحر ، يظهر بذلك أن حكمة الرحمن في خلق الإنسان تشتمل على عشرة آلاف مسألة ، تضاف إليها آثار خلق العرش ، والكرسي ، والسموات والنجوم ، والكواكب ، ثم آثار خلق الله في الجمادات ، والنباتات ، والحيوانات ، فيظهر بذلك أن قوله تعالى « الْحَمْدُ لِلَّهِ » مشتمل على آلاف المسائل التي لا تحصى ولا تعد (234)

(232) راجع ابن عاشور ، 107 .

(233) - النحل : 18

(234) راجع الرازي : التفسير 1 : 4 .

وقوله « رَبِّ الْعَالَمِينَ » نستطيع أن نستنتج من ألفاظها القليلة مسائل كثيرة لا تدخل تحت الحصر اذ العالم ليس محصورا فيما وصلت الى معرفته العلوم الإنسانية بل هو لا نهائي لم يستطع الفكر البشري استكناه لغزه وعظمته . وكل عالم من هذه العوالم المجهولة فيه من الأسرار ، ما في عالمنا أو أكثر أو أقل . وبذلك يتبين لنا أن كلمة « العالمين » لها مفهوم خارج عن حدود امكانيات تفكيرنا ، وتصوراتنا ، ولو أراد الإنسان أن يعرف أسرار عالمنا فقط ، لانتهى عمره بدون أن يصل الى ادراك اشياءه ، مع أن هذا بعض ما يندرج تحت قوله « رَبِّ الْعَالَمِينَ » (235) .

وبعد أن أصل الرازي أصول منهجه في سورة الفاتحة ، تابع تفسيره مخصصا لكل سورة كتابا حتي انتهى إلى سورة الاعراف (236) عند قوله تعالى « يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا » فظهر له أن يُعيدَ عرض منهجه في صورة أخرى أكمل ، وأعمق ، كانت أحسن عرض يبين منهج الرازي :

فبعد أن استعرض حركات الشمس ، واستخلص منها عدّة نظريات فلكية ، قال : « ربما جاء بعض الجهال والحمقى ، وقال أنك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنجوم ، وذلك على خلاف المتعاد » فيجيب عن هذا التساؤل بوجوه عدة الأول : إن الله تعالى ملأ كتابه بالاستدلال على العلم والقدرة ، بأحوال السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار ، وحركات الشمس ، والقمر ، وذكر هذه الأشياء وكررها . فلو لم يكن البحث عنها والتأمل فيها جائزا لما ملأ الله كتابه بها (237) .

الثاني : قال تعالى « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » (238) فهذا حث على التأمل ، ولا معنى لعلم الهيئة الا التأمل .

(235) راجع الرازي : التفسير 1 : 4 ، 5 .

(236) راجع نفس المصدر 4 : 336 .

(237) راجع نفس المصدر 4 : 339 .

(238) ق : 6 .

الثالث : أن الله خلق السماوات والأرض وهي أعظم من خلق الانسان ، الذي قال الله فيه « وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » (239) فما كان أعظم شأننا يجب التأمل فيه .

الرابع : مدح الله المتفكرين في خلق السماوات والأرض فقال « وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا » (240) .

الخامس : المعتقدون في عظمة القرآن على فريقين منهم مما يعتقد في عظمته على سبيل الجملة من غير أن يقف على دقائقه ، ولطائفه ، ومنهم من استنتج عظمته على سبيل التفصيل ، والتعيين . واعتقاد الطائفة الثانية هو أكمل وأقوى .

وإذا ثبت هذا ظهر أن الله تعالى ما أنزل هذا الكتاب إلا لاستنتاج هذه الفوائد ، والأسرار ، لا لتكثير النحو الغريب ، والاشتقاقات الخالية من الفوائد ، واهتداء الرازي لهذا المنهج هو نتيجة اختبار كثير من المعلومات ذهنة بسبب اتساع دائرة تفكيره ، وشغوره بأن هذه المعلومات الضخمة التي استخدمت في كثير من كتبه المتعددة ، يمكن أن تجمع في تفسير كتاب الله تعالى .

لكن الرازي يفرق بين الاستطراد فيما يتصل بمعنى الآية ، وألفاظها : فيستنتج منها أقصى ما يمكن من الفوائد ، وبين الاستطراد في الاخبار الذي يلصق إصاقا بتفسير الآية ، ولا دليل عليه من الآية ، أو الأحاديث الصحيحة مثال ذلك آية البقرة « فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا » (242) ينقل الرازي الخلاف في البعض الذي ضرب به القتيل ، فقيس هو اللسان ، وقيل فخذها الأيمن ، أو ذنبها أو العظم الذي يلي الغضروف ، وباعتباران القرآن لا يدل عليه ولا وردت أخبار صحيحة في هذا فيجب السكوت عنه (243) :

(239) الذاريات : 21 .

(240) آل عمران : 191 .

(241) راجع الرازي : التفسير 4 : 339 ، 340

(242) البقرة : 73

(243) راجع الرازي : التفسير 1 : 567 .

كذلك في قوله تعالى من سورة يوسف عليه السلام وقال : « الذي اشتراه من مِصرَ لامرأته أَكْرَمِي مِثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » (244) ينقل لنا الرازي اختلافاً في اسم من اشتراه ، ثم يعلق على هذا بقوله « واعلم ان شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ، ولم يثبت ايضاً في خبر صحيح » (245) وتفسير القرآن لا يحتاج لهذه الروايات ، فأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها . والرازي في سلوكه لهذه الطريقة متأثر بالطبري في تفسيره لآية البقرة ، الذي يذكر الاحتمالات المختلفة في الجزء المضروب به ، ويؤكد أن الجهل بهذه الأشياء لا يضرب كما أن العلم بها لا ينفع (246)

كذلك في قوله تعالى « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » (247) ، بعد أن يعدد أقوال المفسرين في مقدار المال يشير الى أن تقييم المقدار هو تحكم لا يميل إليه الطبع السليم (248) ، ضرورة أن القرآن قصد التعبير عن الثورة العظيمة ولا يقصد تحديدها .

وكذلك عند تفسير قوله تعالى « وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْءَ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » (249) فهو يستعرض أقوال المفسرين في المدة التي قضاه نوح في صنع سفينته ، وكذلك طولها وما حمل فيها ، ثم يعقب على هذه الأقوال بقوله إن أمثال هذه المباحث لا تعجبني ، لأننا لسنا في حاجة إليها ، ويتعلق بمعرفتها أصل من الأصول ، والخوض فيها يراه الرازي من باب الفضول (250) .

(244) يوسف : 21 .

(245) راجع الرازي : التفسير 5 : 168

(246) راجع الطبري 2 : 231 .

(247) السدثر : 11

(248) راجع الرازي : التفسير 8 : 355

(249) هود : 38

(250) راجع الرازي : التفسير 5 : 83

وبهذه الخطة نجيب الرازي كثيرا من الفضول ، الذي لا يدل عليه القرآن ، ولا تحصل منفعة في اضافته ، ولا مضرة في حذفه ، ورسم طريقا ومنهجاً ، لمن يريد أن يفسر القرآن ، ويستخلص منه أهم الدقائق ، والفوائد بدون افتراض اشياء لا يقتضيها القرآن ولا يدل عليها

والرازي في تفسيره وان كان قد أعرض عن كثير مما لا يقتضيه القرآن الكريم من الترهات ، والأباطيل التي لا سند لها ، ولا يستسيغها الذوق السليم ، الا أنه بالغ في استنتاجاته الفلسفية فسجل أنواعا من الغرائب هي من صنف الأشياء التي استنكرها وأعرض عنها .

من ذلك عند تفسيره لقوله تعالى « لَوَاحِةٌ للبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ » (251) يذكر رأي أرباب الحكمة في تقدير هذا العدد ، ويجعل تسعة عشر هي القوى الحيوانية والطبيعية التي يبلغ مجموعها هذا العدد (252) .

كذلك في قوله تعالى « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » (253) فهو يبسط لنا في المسألة السادسة فضائل العلم ويستشهد على ذلك بكل الآيات والأحاديث التي تبين مكانة العلم والعلماء عند الله سبحانه وتعالى ، غير أنه في هذه الآية يقتصر على الطريق الشرعي ، دون الولوج في الفلسفة (254) .

وقد كان الرازي ذا عقلية منطقية منظمة في تفسيره ، وهذا ما ساعده على تطبيق منهجه ، فهو يجمع الأطراف في حدود الموضوع ، ويقدمه في شكل منظم ويستعرض المسائل القابلة للنقاش بوجوهها المختلفة وحججها ثم يختار ما يظهر له أنه الأحسن ويدافع عنه ويتبناه ، وهو عند بحثه في آيات القرآن يستلهم كل ما يمتد للآية بسبب ، ويبني الأصول ثم يفرع

(251) المدثر : 29 - 30

(252) راجع الرازي : التفسير 8 : 358

(253) البقرة : 31

(254) راجع الرازي : التفسير 1 : 394

الفروع ، وهذا ما عناه الصفدي عندما قال « هو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه ، واتى فيها بما لم يسبق اليه لأنه يذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها ، ويستدل بأدلة السبر والتقسيم فلا يشذ منه عن تلك المسألة فرع » (255) .

والذى ساعد الرازي على هذا هو غزارة علمه ، وقوة حافظته ، وسعة عبارته وذاكرته التي تساعده على ما يريد في تقرير الأدلة والبراهين .

أما تلك العبارة التي اشتهرت بين الألسن والتي مفادها أن تفسير الرازي فيه كل شيء الا تفسير فهي عبارة صادرة عن شعور بالعجز لإزاء عمق الرجل ، أو أرسلتها عواطف الحسد من خصم من الخصوم ، والغريب أن كثيرا من العلماء ردوها وحفظوها ، ونعتوا بها التفسير كلما ذكر بدون فهم ، ولا تمحيص

(د) العلوم في تفسير الرازي

عد العلماء تفسير الرازي تفسيراً علمياً ، وجعلوه من السابقين في هذا المضمار ، ولعل الذي زاد من كثافة هذا التفسير هو اشتماله على عدة علوم سواء كانت علوم لها علاقة بالتفسير كالعلوم الشرعية أم علوم تفسير الظواهر الكونية والإنسانية والنفسية ، ولقد اشتمل تفسير الرازي على عدة علوم من الصنفين اثارها وبحثها ودققها عندما اقتضى الحال ذلك .

أما العلوم الشرعية فقد بحث الرازي منها علم أصول الفقه .

ففي قوله تعالى « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا » أو مثلها أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (256) ، يبدأ الرازي تفسير الآية باستعراض أهم قضايا النسخ في علم الأصول ، فيعرف

(255) راجع الصفدي 4 : 245

(256) البقرة : 106 .

النسخ من الناحية اللغوية ثم يستعرض أدلة الجمهور في جواز النسخ ، خلافا لليهود . ثم يأتي بأمثلة تحلل وجوه النسخ المختلفة ، كنسخ القرآن بالقران ، أو القرآن بالسنة ، ويستشعر أن الموضوع يستدعي إطنابا أكثر فيقول « وتمام الكلام في النسخ مذكور في أصول الفقه (257) » .

والقضايا الأصولية مبثوثة في تفسير الرازي بكثرة نظرا لمكانة الرجل في علم الأصول حتى أنه استطاع جمع ما في العلم من المسائل في كتابه المحصول .

ومن القضايا التي يهتم بها الرازي في تفسيره القياس الذي يعتبر من نفاته حتى أنه الف كتابا في ذلك (258) . يستعرض الرازي القياس في قوله تعالى « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » (259) فيجعل الآية من الأدلة التي احتج بها منكروا القياس ، لان قوله « فحكمه إلى الله » فحكمه مستفاد من نص الله عليه ، وهذا فيه نفي العمل بالقياس ، ووجوب الرجوع لحكم الله كلما اختلفتم في قضية من القضايا (260) .

أما الحديث فلا نجده بارزا بكثرة في تفسير الرازي ، ضرورة أنه اشتهر بين العلماء بضعفه في الحديث ، وهي الناحية التي استغلها الخصوم للهجوم عليه ، على اننا نجده يكثر في بعض الأحيان في استعمال الحديث ، وتارة يعرض عنه إذا تبين له ضعفه كما أعرض عن الأحاديث التي ذكرها المفسرون في فضائل السور ومن السور . التي أكثر فيها من إيراد الحديث سورة الاخلاص ، وكأنه أراد بذلك أن يخالف المفسرين الذين سبقوه ، وتعودوا ذكر الأحاديث بعد الإنتهاء من تفسير السورة (261) . فهو يفتح سورة

(257) راجع الرازي : التفسير 1 : 664

(258) أنظر قناتي : دائرة المعارف الاسلامية .

(259) الشوري : 10 .

(260) راجع الرازي : التفسير 7 : 390 .

(261) راجع العمري ، 127 .

الإخلاص بقوله : « قبل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصول » ثم يبدأ في رواية حديث « من قرأ سورة قل الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » (262) ، وكان لسورة الإخلاص مكانة خاصة عند الرازي لما تحتويه من التنزيه الألهي ، الذي سخر الرازي له حياته العقلية لابرازه والدفاع عنه ضد المشبهة والمجسمة .

أما القراءات فهو يتعرض للقراءات المختلفة مبرزاً وجه إعرابها محتجاً بما قاله النحويون في تخريجها (263) ، مما يدل على معرفة واسعة بقراءات القرآن ، وطرق تخريجها ، ولعله استعان في هذا الشأن بمن سبقه من المفسرين وخاصة الطبري والزمخشري .

أما الفقه فقد تناوله الرازي في تفسيره ، غير أنه اقتصر على المسائل الكلية ، أما الجزئيات فلم يعتن بها كثيراً وقد برز الرازي فقيها شافعيًا يناقش الحنفية في جل المسائل التي ثبت للشافعي قول فيها . ومن أشهر المسائل التي ناقش فيها الحنفية ، ورد عليهم مسألة قراءة الفاتحة في الصلاة (264) ، التي يورد فيها أولاً عدة أحاديث مسندة للرسول عليه السلام كلها توجب قراءة الفاتحة في الصلاة خلافاً لأبي حنيفة الذي يتعجب منه الرازي كيف يتمسك في مسائل بخبر الواحد ، كتمسكه بوجوب مسح الناصية ، وفي قضية الفاتحة تواتر الخبر أنه عليه السلام واظب طول عمره على قراءة الفاتحة ، ومع ذلك لا يوجبها أبو حنيفة (265) .

وهذه المناقشة مع الإمام أبو حنيفة يورد الرازي فيها ثمان عشرة حجة يستخدم فيها من ناحية المعلومات علم الأصول ، ومن ناحية طرق الجدل المنطق والمقدمات ، والنتائج مما يدل على تمسكه بالمذهب الشافعي ،

(262) راجع الرازي : التفسير 8 : 751

(263) راجع نفس المصدر 5 : 74 .

(264) راجع الرازي : التفسير 1 : 150

(265) نفس المصدر 1 : 151

واصطدامه في كثير من المسائل بالمذهب الحنفي . أما المذاهب الأخرى فقل ما يناقشها الرازي فهو يعترض بقلة الحنابلة أما المالكية فهو قليل النقاش معهم ربما لموافقة مذهبهم للمذهب الشافعي ، ثم أن عددهم قليل في خراسان وبلاذ ما وراه النهر

ويناقش الرازي الحنفية كذلك في قوله تعالى « وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (266) عندما يعترض لمسألة التغليس في الصلاة ، فيورد أدلة الشافعي . مبتدأ بالأحاديث الشريفة التي منها قول عائشة رضي الله عنها « كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي الصبح فينصرف والنساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس » ثم بعد استعراض حجج الشافعي يورد أدلة أبي حنيفة مفصلة مبتدأ بالأحاديث كذلك ومنتهيا بالأدلة العقلية ثم يأخذ في رد شبهات الحنفية حتى ينتهي عليها (267)

أما معنى الآية فلا يذكره ، ويتجاوز عنه لأنه كان ذكره في قوله تعالى « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (268) .

كذلك يتواصل النقاش مع الحنفية في قوله تعالى « إِنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ مِنْ شِعَابِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ احْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَلِنْ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » (269) عند الكلام عن السعي ، هل هو واجب ، وركن وهو قول الشافعي أو هو ليس بركن ويقوم الدم مقامه وهو قول الإمام أبي حنيفة ، وكعادة الرازي يورد أدلة الإمامين ثم يجيب مفندا حجج الحنفية (270) .

(266) البقرة : 148 .

(267) راجع الرازي : التفسير 2 : 43 - 44 .

(268) البقرة : 20 .

(269) البقرة : 158 .

(270) راجع الرازي 2 : 151 .

والملاحظ أنه مهما طال النقاش في الأصول الفقهية التي يوردها الفخر الرازي ، فإن المسألة تقتصر على الكليات ، أما الفروع وتفاصيلها فالرازي يعرض عنها بل يعتبرها تفاريع فقهية ، لا تليق بالتفسير ولا تماشى مع خطته .

ف عند تفسيره لقوله تعالى « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقْوَمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا » (271) يذكر الاختلاف في علة تحريم الربا بين الأئمة الشافعي ، وأبي حنيفة ، ومالك وعبد الملك بن الماجشون . وعندما يصل للتفريعات يصفها بكونها لا تليق بالتفسير (272) . وبهذا نلاحظ أن الإمام ابن الخطيب متضلع في الفقه كتضلعه في كثير من العلوم الأخرى ، وهو يحكي المذهب الشافعي ، والمذاهب الأخرى بدقة وموضوعية وتوسع تدل على إلمامه بأصول هذه المذاهب ، وقدمه الراسخة في الدراسات الفقهية ، على أن الرازي شافعي محافظ يخدم مذهبه ويدافع عنه بكل تجرد ويفاخر بالإنساب إليه ، وهذا ما دفعه لوضع شرح لوجيز الإمام الغزالي في الفقه الشافعي (273) وتأليف كتاب في مناقب الإمام الشافعي رضي الله عنه (274) .

أما علم الكلام ، فلعله العلم الذي استأثر بأكبر قدر ، وأعظم مجهود في تفسير الإمام الرازي ، ضرورة أنه العلم الذي يتحدث عن الأصول وما استقامت الأصول الفلسفية العقلية للشريعة الإسلامية إلا بالتبحر في علم أصول الدين أو الكلام . والرازي قد أرسى بسفينته في هذا البحر فألف فيه عديد الكتب وطوره وخلط مسائله بالفلسفه ، وكان من الطبيعي أن يتناول

(271) البقرة : 275 .

(272) راجع الرازي 2 : 531 .

(273) راجع خليفة 2 : 1840 .

(274) توجد نسخه منه مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق نسخت سنة 276 / 890 راجع يوسف المش : فهرس مخطوطات الكتب الظاهرية دمشق 1386 / 1947 وطبع طبعة حجرية سنة 1279 .

الرازي في تفسيره هذا العلم لاحتواء القرآن عليه في الإشارات المتعددة التي أشار الله بها للوحدانية وللصفات والأفعال ، ورسالة الرسول عليه السلام والبعث ، والقضاء والقدر ، وكل القضايا التي تدرج تحت كلمه التوحيد .

غير أننا سوف لا نتعرض لكلّ القضايا الكلامية الفلسفية التي استعرضها الرازي في تفسيره ، وإنما نقتصر على بعض النماذج المثبوتة في مفاتيح الغيب .

ومن ذلك أنه بدأ في شرح مفهوم الصفات عند قوله تعالى «وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» (275) ، والكلام في تفسير لفظ الإله قد تقدم في تفسير قوله تعالى «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» أما الواحد ففيه مسائل (276) : هل الواحدية صفة زائدة عن الذات أم هي عين الذات ، وهنا يثير الرازي قضية الخلاف المشهور بين أهل السنة والمعتزلة ، ويفند أدلة الاعتزال في قولهم إن الصفة هي عين الذات (277) .

غير أن البحث الذي يتابعه الرازي في هذا الشأن هو جدير بالمختص المتمعمق ، أما الباحث عن الأدلة البسيطة فعليه بالرجوع لعقيدة السلف ولا حاجة له بهذا

ثم يستعرض الرازي الدلائل على وجود الصانع من خلال الاستدلال بأحوال السموات ، فيعطينا فكرة عن ترتيب الأفلاك ومعرفتها ومقادير هذه الحركات ، ثم يبين كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الصانع .

كذلك يستعرض لنا أحوال الأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وجريان الفلك في البحر، وبيان مواضع من البحار، ثم كيفية الاستدلال بهذه الأشياء على وجود الصانع . وكذلك انزال الماء من السماء وبث الدواب في الأرض ،

(275) البقرة : 163 .

(276) راجع الرازي : التفسير 2 : 72 .

(277) راجع الرازي : التفسير 2 : 74 .

وتصريف الرياح ، وتسخير السحاب بين السماء والأرض والعناية الإلهية بالإنسان (278) . وهكذا يقدم لنا الرازي دراسة شاملة ضخمة على الكائنات ودقائق حياتها ، وخلقها ليستخلص منها بعد ذلك الوجود الواجب لله سبحانه وتعالى .

والطريقة التي يسلكها الرازي تتطلب عقلا منظما منطقيا جبارا كعقل الرازي ، وإلا زلت القدم ، وتاه الإنسان في معميات عقلية لا يستطيع الخروج منها الا من وهب عقل كعقل الرازي .

ويتعرض الرازي كذلك في تفسيره لقضية القضاء والقدر عند الكلام على الآيات التي تشير للجبر والإختيار ، ونظرا لكثرة الآيات وتبسّط الرازي في شرحها سنقتصر على بعضها قال تعالى : « وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانًا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَبْزَدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » (279) احتج أهل السنة بهذه الآية في مسألة القضاء والقدر من وجوه : منها أن المقصود من هذا الإملاء هو أن يزدادوا إثما ، وبغيا ، وذلك يدل على أن الكفر والمعاصي بارادة الله ثم يستعرض أقوال المعتزلة في المسألة (280) .

وتحديد موقف الرازي من هذه القضية يقتضي منا دراسة حياة الرازي الكلامية من خلال اثاره الكثيرة (281) وهو ما يصعب انجازه ، ولهذا سنستخلص مواقفه من قضية القضاء والقدر من ايتي النحل والكهف .

قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ »

(278) راجع الرازي : التفسير 2 : 83 - 106 .

(279) آل عمران : 178 .

(280) - راجع الرازي 3 : 152 .

(281) راجع في قضية القضاء والقدر عند الرازي دراسة ارندلاز

كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » (282) . يقول الرازي في تفسير هذه الآية : احتج أهل السنة بهذه الآية على أن الهدى والضلال من الله ، ومن الأمم من هداه الله ونور قلبه بنور الإيمان ، ومنهم من أضله وأوقعه في الكفر ، ويجب عن اعتراض المعتزلة كيف يقدر له الكفر ؟ ثم يعاقبه بأن أمر الله لا يوافق لإرادته ، بل قد يأمر بالشئ ولا يريده ، وينهى عن الشئ ويريده ، بخلاف مذهب المعتزلة الذين يقولون الأمر والإرادة متطابقان (283) .

يتعرض الرازي كذلك لهذه القضية في قوله تعالى « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا » (284) .

مذهب المعتزلة أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد والعبد يريد المعصية والكفر لنفسه ، فيقع مراد العبد ، ولا يقع مراد الله وبذلك تكون إرادة العبد غالبية وإرادة الله مغلوبة . أما عند أهل السنة كل ما صدر عن العبد فهو من خلق الله تعالى وعلى هذا إذا قال العبد لأفعلن كذا غدا أن شاء الله والله إنما يدفع عنه الكذب إذا كانت إرادة الله غالبية على إرادة العبد ، وعلى هذا يكون التقدير أنا أفعل الفعل الفلاني إلا إذا كانت إرادة الله بخلافه ، فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبية على إرادتي (285) .

(282) النحل : 35 ، 36 .

(283) راجع الرازي : التفسير 5 : 454

(284) الكهف : 23

(285) راجع الرازي : التفسير 5 : 704

وبذلك نرى الرازي ينحاز للمذهب الأشعري في مسألة الجبر ، والإختيار ، ويتسلح بنفس الأسلحة التي استعملها علماء المذهب من قبله ، كأبي بكر الباقلاني ، والإمام الغزالي ، وغيرهم ويزيد عليها بحججه الفلسفية التي اتسمت بها تاليفه المختلفة في علم الكلام ، وخاصة كتابه العظيم المباحث المشرقية .

ولم يقتصر الرازي في تفسيره على العلوم الشرعية فقط ، بل تناول أيضا المسائل الطبية ، ضرورة أنه اشتهر كذلك بالتأليف في الطب ، شرح القانون في الطب لأبي علي حسين ابن عبدالله المعروف بابن سينا 1036/428 هـ تناول المسائل الطبية في قوله تعالى «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» (286) . إذ أن الأيام الشديدة تشيب الأطفال لأن الهموم والأحزان اذا تكاثرت على الإنسان ، تكاثر شيبه ، لأن كثرة الهموم توجب انقصار الروح الى داخل القلب ، وذلك الإنقصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية ، وضعفها يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير قامة النضج ، وذلك يوجب استيلاء البلغم على الأخلاط ، وهذا يوجب ابيضاض الشعر» (287)

وقد سئل الرازي من طرف بعض الأدباء عن بيت المعري « وظلم يملأ الفودين شيبا » وكيف أن التشبيه في الآية يفضل بيت المعري ، فأجاب بثلاثة أوجه منها : أن امتلاء الفودين من الشيب ليس فيه مبالغة ، لأن جانبي الرأس موضع للرطوبات الكثيرة البلغمية « ولهذا السبب فان الشيب يبدأ أولا في الصدغين ويتتابع في سائر جوانب الرأس ، فالشيب في الفودين ليس بمبالغة ، وانما المبالغة هو استيلاء الشيب على جميع أجزاء الرأس (288)

وبذلك يستعمل الرازي معلوماته الطبية في تحليل مسائل بلاغية ويجعل للمسألة البلاغية علة طبية تتلاءم مع تخريجها .

(286) المزمّل : 17

(287) الرازي : التفسير 8 : 343 .

(288) نفس المصدر 8 : 343 - 344 .

لكن الرازي عندما يهتم بالمسائل الطبية في تفسيره يحتفظ دائما بموقفه الشخصي ، ولا ينساق مع أقوال الأطباء في معارضتهم لكثير من الإشارات القرآنية . ففي قوله تعالى « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » (289) يرد على قول الأطباء الذين يؤيدون أن عمر الإنسان الطبيعي لا يزيد على المائة والعشرين عاما ، بأن دوام المؤثر يخبر دوام المؤثر فتأثيره يجوز أن يكون دائما ، ثم ان العمر عطاء الهى أما العمر الطبيعي فهو الذي يتحدث عنه الأطباء (290) .

وكذلك يثير نفس المشكلة في قوله تعالى « فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه أو حرقوه فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ » (291) لان الأطباء أطنبوا في ذكر الحجج التي تمنع من سلب فاعلية الإحراق في النار ، وانكار الأوجه المختلفة التي قدمها العلماء تأويلا لقوله تعالى « فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ » . فيعرض الرازي أدلة الأطباء مفصلة مما يدل على هضمه لكثير من قضايا الفيزيولوجيا التي كانت معروفة في عصره ، ثم يرد عليهم مبينا خطأ أدلتهم العقلية والعلمية (292) .

هـ) الآيات الكونية

يعني الآيات التي صور القرآن فيها الكائنات تصويرا يكشف عن عظمة الله في خلقه ، وهذا التصوير الدقيق للكائنات من طرف الله سبحانه وتعالى يستدعي وقفة تأمل ، حتى يستخلص الباحث منها كثيرا من الإشارات العلمية التي تدل على القدرة ، وشمولها لكل ما احتوى عليه العالم .

والرازي في تناوله لهذه الآيات عدل عن الطريقة القديمة المقتصرة على ابراز المعاني اللغوية والبلاغية ، مع الإشارة للقراءات إلى طريقة أخرى فيها استخلاص عدة ثقافات من إشارات القرآن .

(289) العنكبوت : 14

(290) راجع الرازي : 6 : 650

(291) العنكبوت : 24 .

(292) راجع الرازي : 6 : 659 .

وسنأخذ نموذجاً من الآيات الكونية حتى نتعرف على الخطة التي اتبعت في تفسير هذه الآيات .

قال الله تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (293) فالرمخشري عند تفسيره لهذه الآيات يقتصر على بعض الملاحظات تماشياً مع مذهبه ، واعتباراً ان التفسير مجعول لطبقة خاصة لها زاد في العلوم اللغوية والبلاغية أما الرازي فهو يعرض تماماً على منهج (294) الرمخشري في هذه الآية ويفرغها أولاً الى عدة مسائل :

المسألة الأولى الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع ، فالشمس بضوئها الباهر ، وشعاعها القاهر ، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص ، هو بتحقيق مخصص ، وإيجاد موجد ، وتقدير مقدر . وثبت بذلك أن اختصاص الشمس والقمر بهذه الأنواع هو بجعل يجعل ، فثبت تأثير الله في الشمس ، والقمر ، وثبت كذلك صحة قوله تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً » (295) .

ويواصل الرازي تفريع عدة مسائل من الآية (296) حتى يصل للمسألة الثامنة التي بين فيها المنافع التي تنجر للإنسان من الكوكبين ، وذلك يدل على رحمته تعالى بنا ، وهذا التنظيم في حركات الأفلاك وسيرها سيرا يتناسب مع مصالح الإنسان في استغلال ميراث هذه الدنيا ، وجعلها وسيلة للجزاء في الآخرة يدل على مدبر حكيم (297) .

ويستعين الرازي في بعض الأحيان في تفسير وتحليل الآيات الكونية بالخرافات السائدة في عصره ، ثم يفيد لها بعض الأشكال العقلية

(293) يونس : 5

(294) لا راجع الرمخشري 2 : 329 .

(295) راجع الرازي التفسير 4 : 729 .

(296) الرازي : التفسير 4 : 799

(297) نفس المصدر 4 : 801

لتستقيم ، ومثال ذلك قوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ » (298) والدخان بفسره الرازي بالظلمة ، والله قد خلق السماء من أجزاء مظلمة ، والظلمة ليست كيفية وجودية بدليل أنه لو جلس الإنسان في ضوء لا يرى الجالس في الظلام ، ومن جلس في الظلمة فهو يستطيع أن يرى الجالس في الضوء . والأجزاء التي خلق الله منها السموات والأرض والشمس والقمر كانت مظلمة ، فصحت تسميتها بالدخان ، لأنه لا معنى للدخان إلا الأجزاء المتفرقة الغير متواصلة (299) .

وفي قوله تعالى « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » (300) يعتمد أقوال العلماء في المسألة فيقول : الأرض ثلاث طبقات ، طبقة أرضية محضة ، وطبقة طينية ، وهي غير محضة ، وطبقة منكشفة بعضها في البحر ، وبعضها في البر ، وهي المعمورة ، وعلى حساب الأرض هناك سبع سموات ، وسبع كواكب سيار ، ولكل واحدة من هذه الكواكب خواص تظهر آثارها في كل اقليم من أقاليم الأرض : ثم يرفض الخرافات التي أخذ بها المفسرون السموات السبع أولها مرج مكنوف وثانيها صخر ، وثالثها حديد ، ورابعها نحاس ، وخامسها فضة ، وسادسها ذهب ، وسابعها ياقوت . ويكذب كذلك قول من قال بين كل واحدة منها مسيرة خمس مائة سنة ، وهذا غير مقبول عند أهل التحقيق إلا إذا كان النقل متواترا (301) .

والرازي يوجه انظارنا لما تحويه هذه الآيات الكونية من مقاصد تتوقف على بعضها معاني القرآن في نظر الرازي ، هو هذه المسائل الأربع وهي التوحيد والنبوة ، والمعاد ، والقضاء ، والقدر . ففي قوله تعالى « إِنَّ

(298) فصلت : 11

(299) راجع الرازي 7 : 355

(300) الطلاق : 12

(301) الرازي : التفسير 8 : 230

رَبِّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِلَهِ الْخَلْقِ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » (302) توحيد لإثبات التوحيد ، والقدرة والعمل ، ونحن لا نستطيع اثبات أمر المعاد ، إلا إذا أثبتنا هذه الصفات الثلاث ، ويفرغ الرازي عن هذه الآية عدة مسائل (303) .

منها : هذه الأجسام متحركة محال لان الحركة انتقال من حال الى حال ، فالحركة يجب أن تكون مسبوقة بحال أخرى ، والأزل ينافي المسبوقية فكان الجمع بين الحركة ، وبين الأزل محال ، اذا أثبت هذا القول : هذه الكواكب والأفلاك ، إما انها كانت معدومة في الأزل ، ثم وجدت أو يقال انها كانت موجودة لكنها ساكنة في الأزل ، ثم ابتدأت بالحركة ، وعلى التقديرين فتلك الحركات ابتدأت بالحدوث ، والوجود في وقت معين ، مع جواز حصولهما قبل ذلك الوقت ، وبعده . واذ كان كذلك كان اختصاص ابتداء تلك الحركات بتلك الأوقات المعنية تقديرا ، وخلقا ، ولا يحصل ذلك إلا بقادر (304) .

ومنها أن بعض الكواكب في جهة معينة ، وبعضها أعلى من بعض بالإضافة للسرعة ، والبطء . ولا بد أن تكون هذه الظواهر بفعل فاعل (305).

وبعد أن ينتهي الإمام الرازي من أدلة الوجود والتوحيد ينتقل لإثارة الإشكالات المتعددة ، واشكالات الرازي قوية متينة ، لان موضوعيته أجبرته على تقديم الأدلة العقلية في صورتها الكاملة ، وهي من الأشياء التي انتقدت عليه ، فقليل إنه يثير الشبهات ، ولا يجيب عنها بإجابات مقنعة .

(302) الأعراف : 54

(303) الرازي التفسير 4 : 318 - 319

(304) نفس المصدر : 4 : 319

(305) نفس المصدر : 4 : 319

ولما كانت الآية فيها الإشارة لعدة مواضع من علم الكلام ، فإن الرازي يستغلها ليتكلم عن أدلة الوجود من الكائنات ثم العرش ثم الجهة (307)

ويستغل الرازي كذلك الآيات الكونية لإبراز وحدانية الله في قوله تعالى « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ » (308) فيقول إذ كان المقصود اثبات التوحيد ، فكيف يقول بنيناها ، ولم يقل بنيتها ، وبناها الله فيجيب عن هذا بقوله : بنيناها أدل على عدم الشريك في التصرف ، وأما قوله بنيتها فيمكن أن يكون فيها شريك كما أن بيننا يورث وهما بأن الآلهة التي كانوا يجددونها ، هي التي يرجع الضمير إليها في قوله بنينا ، لأن تلك إما أصنام منحوتة ، وأما كواكب جعلوا الأصنام على صورتها ، والأصنام لم تبن من السماء شيئا ، أما الكواكب فهي محتاجة الى السماء فلا يمكن أن تكون هي بانيتها ، وإنما هي بنيت لها فصيغة العظمة انفى للشريك ، وثبت بهذا أن قوله تعالى بنيناها أدل على نفى الشريك من بنيتها وبناها الله (309)

على أننا لا نجد الرازي يتابع نفس النسق في الآيات الكونية الأخرى ، وإنما هو يركز مجهوده في بعض الآيات فقط ، أما الآيات الأخرى فتوسع فيها توسعا بسيطا (310) ، كقوله تعالى « وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا » (311) وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا » (312) .

والملاحظ أن الرازي يستغل كثيرا الآيات الكونية ليعزز من خلالها قدرة الله ، ويتبسط في الأمر ، فيستعرض أهم مشاكل علم الكلام ، ويرد

(306) نفس المصدر 4 : 320

(307) نفس المصدر 4 : 320

(308) الذاريات : 47

(309) راجع الرازي 7 : 680

(310) راجع الرازي 8 : 307 - 431

(311) النبأ : 12 .

(312) نوح : 12 .

على منكري الوجود والوحدة . ويبدو لي أن التجربة التي خاضها الرازي كانت الأولى من نوعها ، ولم يجرؤ قبله أحد من المفسرين على توخي هذه الطريقة ، التي تتطلب ثقافة ضخمة لا تتوفر إلا لأمثال الإمام الرازي .

(و) الرد على الفرق ومناقشتها

وقد شغل الرد على الفرق أكبر حيز في التفسير ، ضرورة أن الرازي قد قضى القسم الأكبر من حياته في مناقشة هذه الفرق التي تكاثرت وتعددت في المناطق التي ارتادها الإمام الرازي .

ومن أشهر الفرق التي نازلها الرازي ، واشتبك معها الشيعة : ضرورة أنها كانت تمثل السواد الأعظم من سكان مناطق خراسان ، وخوارزم ، وبلاد ما وراء النهر . غير أن مناقشته مع الشيعة لم تشتهر ، لان الخلاف كان لا يتجاوز مسائل جزئية كأفضلية أبي بكر على علي رضي الله عنهما . وقد ناقش الإمام الرازي الشيعة في قضية الأفضلية في قوله تعالى : « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى » (313) فقد ذكر في محضره أن هذه الآية نزلت في علي مع اجماع المفسرين على أنها نزلت في أبي بكر ، فأخذ يقيم الأدلة العقلية على نظرية الجمهور ، ومن هذه الأدلة قوله : ان المراد بالأتقى هو أفضل الخلق ، وهو أبو بكر لإجماع الأمة على أن أفضل الخلق بعد الرسول عليه السلام هو اما أبو بكر أو علي . ولا يمكن حمل الآية على علي ابن ابي طالب لأنه قال بعد ذلك « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » ، وهذا الوصف لا يصدق الا على ابي بكر الذي اشتهر بانفاقه الكثير في سبيل الاسلام ، أما علي فقد كان في كفالة ابن عمه الرسول عليه السلام زمن ابتداء الدعوة (314) .

(313) الليل : 17 ، 18 ، 19 .

(314) راجع الرازي 8 : 592 - 593 .

على أن الرازي وان كان يناقش الشيعة في شأن أفضلية أبي بكر على علي لم يغمط حق أهل البيت وأفضليتهم ، وجهادهم ، وصبرهم في سبيل الخير والاحسان ، عند تفسيره لقوله تعالى « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوْ سَا قَمَطَرِيرَا (315) » فهو يذكر أن أحدا من المعتزلة كأبي علي الجبائي ، والقاضي عبد الجبار لم يتعرض الى أن هذه الآية نزلت في علي كرم الله وجهه . وان الواحدي من أهل السنة هو الذي أشار الى انها نزلت في علي . أما صاحب الكشاف الزمخشري فيقتصر على نقل القصة عن ابن عباس رضي الله عنه (316) . كذلك يناقش الرازي الشيعة في أفضلية أبي بكر على علي - رضي الله عنهما - في قوله تعالى « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا » (317) فيشير الى ان الآية نزلت في أبي بكر لأنه أول من أنفق المال على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي علي لاشتهاره بالتضحية والقتال في سبيل الله . والله قد قدم الإنفاق على القتال ، وفيه تلميح أن مقام أبي بكر المنفق أبرز من مقام علي المقاتل في سبيل الله ، لان الإنفاق من باب الرحمة ، والقتال من باب الغضب . وقد سبقت رحمته غضبه . ثم ان أبا بكر كان رجلا كهلا في أول البعثة النبوية فانفاقه كان من أهم الأسباب التي ساعدت على انتصار الدعوة الإسلامية ، أما علي فرغم مكانته ، وسبقه في الإسلام ، الا أنه كان عاجزا لصغره عن الإنفاق ، وكذلك القتال (318) .

(315) الإنسان : 9 ، 10 .

(316) راجع الرازي : التفسير 8 : 391 - 393 .

(317) الحديد : 10

(318) راجع الرازي 8 : 124

والرازي في مناقشته للشيعة يسير حسب الخطة التي تعودها أهل السنة في احترام وأكبار جميع صحابة الرسول عليه السلام والاقرار بفضلهم ، لكن لا بد من وضع كل واحد منهم في مقامه مستلهمين في ذلك بمواقف الرسول ، وسلوكه مع صحابته .

كذلك اهتم الرازي بالرد على المعتزلة ، لأنها الفرقة التي نبع منها علم الكلام ، وتطور على يديها ، ثم أن الأصول التي اعتمدها تمثل المحور الذي تدور عليه العقيدة الاسلامية .

ففي العلوم الالهية قالوا ان أفعال العباد مخلوقة للبشر ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ شَيْئًا بِهِ ثَمَنًا (319) قَلِيلًا » ، ويقولون تعالى « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » (320) ، مما يدل على أن هناك خالق اخر غير الله .

وأما في الأصول فقد دعوا الى سلطان العقل ، ونتج عن ذلك أنهم حضروا المعجزات في دائرة ضيقة فالنظام مثلاً يكاد يقصر المعجزات على القرآن ، وينكر انشقاق القمر ، وانكروا كرامة الأولياء ، ورؤية الجن ، كما ترويه العامة . وفسروا السحر بأنه لعب الساحر بعين المسحور أو بخیاله .

وقالوا بجواز الخطأ على الصحابة ، وقد صاغ هذه المبادئ وأخضعها لكتاب الله تعالى أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري 583 / 1187 الذي بذل مجهودات كبيرة في التوفيق بين أصول الاعتزال ، وتفسير القرآن الكريم ، وبحث المعتزلة لغالب الأصول التي اعتمد عليها الاسلام هو الذي جعلهم يصطدمون كثيراً بالإمام الأشعري بصورة خاصة ، وبأهل السنة بصورة عامة .

(319) - البقرة ، 79 .

(320) - المؤمنون ، 14 .

فقد خالفوهم في معنى التوحيد وأثبتوا لله الصفات المعنوية بدون أن يمس ذلك بالتوحيد الإلهي ، وفي العبد الإلهي اختار أهل السنة مذهباً وسطاً بين الجبر والإختيار ، وأن الله تعالى يوجد القدرة والإرادة في العبد ، وقدره العبد وأرادته لهما مدخل في فعله . كذلك خالف أهل السنة المعتزلة في الوعد والوعيد ، فقالوا لا يخلد في النار إلا الكافر ، والله قادر على أن يغفر لمن يشاء وجوزوا رؤية الله في الآخرة ، ونسبوا خلق الأفعال خيرها وشرها لله تعالى .

وتحجر مذهب الاعتزال وعدم تطوره في بعض المسائل ، هو الذي دفع الناس للالتفاف نحو المذهب الأشعري ، فثبتوه ووسعوا من دائرته ووقفوا بينه وبين نظريات أهل السلف وأطلقوا عليه مذهب أهل السنة . وتأيد المذهب الأشعري بأمثال إمام الحرمين الجويني ، وأبي بكر الباقلاني الذين سعوا في توسيع المذهب من ناحية موضوعاته ، ومعالجة براهينه بطريقة منطقية .

ولكننا نلاحظ أن الأشعرية اكتسبت مكانة جديدة بانضمام الإمام أبي حامد الغزالي ، والفخر الرازي ، وتمثل هذه الدفعة الجديدة في المؤلفات العديدة ، التي ألفها في المذهب الأشعري . فالغزالي وضع رسالة سماها عقيدة أهل السنة ، أما الفخر الرازي فلم تخل كتاباته المتعددة في كتبه العديدة من إثارة لمشكل قام بين الأشاعرة وأهل الاعتزال . ولكن هذه المجادلات والمناظرات التي لا تنتهي جمعها بعد ذلك الرازي في تفسيره ، لأن أكثر آيات العقائد مظنة المناقشة بين المذهبين .

وان كنا لا نستطيع التعرف لكل ما في التفسير من نزاع بين أهل السنة والمعتزلة ، فاننا سنقتصر على نماذج من الآيات التي تثار حولها المشاكل العقائدية .

ففي قوله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » (321) احتج أهل السنة بهذه الآية ، وكل

ما أشبهها من قوله تعالى « لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » (322) ، وقوله « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » (323) ، وقوله « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » (324) على جواز التكليف بما لا يطاق ، وبعد الاتيان بحجج أهل السنة مفصلة ياتي بنظريات المعتزلة بطريق أبي علي وأبي هاشم الجبائين ، والقاضي عبد الجبار ، وطريق الكعبي ، وأبي الحسين البصري ، وأخيرا يوهن الرازي حجج أهل الاعتزال (325) .

يثار كذلك النزاع بين مذهبين في قوله تعالى « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (326) عندما يحتج المعتزلة بهذه الآية على أن الكفر من قبل العباد أي أن الشر من الإنسان ، والخير من الله تعالى ، وعدالة الله تقتضي أن يعاقب الانسان على الأشياء التي صدرت منه ، وكالعادة يعرض لنا الرازي أدلة الاعتزال مفصلة ثم يأخذ في الرد عليها (327) .

يستعرض الرازي كذلك الخلاف بين الفرقتين في قوله « وَاسْتَغِيثُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوَاتِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » (328) الذين يَتَذَكَّرُونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » عندما يستدل أهل السنة بهذه الآية على جواز رؤية الله تعالى ، ورد عليهم المعتزلة بأن لفظ اللقاء لا يفيد (329) الرؤية .

(322) يس ، 7 .

(323) المدثر ، 11 .

(324) السد ، 1 .

(325) راجع الرازي : التفسير 1 : 264 - 268 .

(326) البقرة : 28 .

(327) راجع الرازي : التفسير 1 : 366 - 367 .

(328) البقرة : 45 .

(329) راجع الرازي 1 : 499 .

وفي قوله تعالى « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » (330) في تحديد أهل السنة حصول الشفاعة لأهل الكباثر (331) ، وفي قوله تعالى « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَأَسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً وَآرَنَّا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (332) ، يستشهد أهل السنة بقوله « وتب علينا » على أن أفعال العبد خلق لله تعالى (333) ، وبذلك نستطيع أن نقول بأن تفسير الفخر الرازي احتوى على كل المشاكل التي أثرت بين المذهب السني ، وأهل الاعتزال ضرورة أن كتب علم الكلام تعرض للمسائل فقط ، بخلاف التفسير فله من الآيات التي كانت سببا في إثارة النقاش مجالا ليستوفي القول فيها من ناحية عرض مذهب الاعتزال على حقيقته ، ثم رد أهل السنة عليهم من الناحية العقلية ، وهو المتعارف ، ومن ناحية العقلية وهي المهمة التي اضطلع بها الرازي ، وأجاد في ادائها .

اهتم الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره بالرد على أصحاب الأديان الأخرى ، وخاصة اليهود والنصارى ، أما النصارى فما لهم ما شهدوه من انتصار الدعوة الإسلامية ، واكتساحها لكثير من أصقاع الأرض على حسابهم ، فأرادوا الكيد لها بكل وسيلة من الوسائل ، وخاصة متافشة الآيات التي تعرض لهم ، وثبت انسانية عيسى ونبوته .

وقد كانت مناطق خوارزم وبلاد ما وراء النهر تلاصقها شمالا ببلدان ساد فيها الدين النصراني ، واستكثر ، وهذا من الأشياء التي ساعدت على تكاثر عدد النصارى في هذه المناطق ، واشتباكهم مع المسلمين في

(330) البقرة : 48 .

(331) راجع الرازي 1 : 503 .

(332) البقرة 127 ، 128 .

(333) راجع الرازي 1 : 732 .

كثير من المجادلات ، والمناظرات ، التي تدور حول محور عيسى عليه السلام ، وطبيعته الإنسانية حسب المسلمين ، واللاهوتية حسب النصارى .

تعرض الرازي للنصارى في الآيات التي برئت أو نزهت عيسى ، مما ألصقه به اليهود والنصارى ، ففي قوله تعالى « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » (334) ، ذكر الرازي أنه عندما كان بخوارزم أخبر أن هناك نصراني يدعى التحقيق والتعميق في النصرانية ، فذهب إليه وشرعا في الحديث ، فقال النصراني ما هو دليلك على نبوة محمد ، قال الرازي ظهور الخوارق على يد موسى ، وعيسى ، وغيرهما من الأنبياء فحصول التواتر هو الذي جعلنا نؤمن بمعجزات محمد ، وما يستتبع ذلك من انكارهم للنسخ الذي تسلط على الشريعة الموسوية ، فيثير معهم الرازي نقاشا بمناسبة تعرضه للنسخ في قوله تعالى « مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَوْ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (335) ، فيقول النسخ جائز عقلا واقع سمعا خلافا لليهود ، فمنهم من أنكره عقلا ، ومنهم من جوزه عقلا لكنه منعه سمعا ، ثم يثير على اليهود الزمان لا بد من الإقرار بهما .

الاول : أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام عند خروجه من الفلك ، « اني جعلت كل دابة مأكل لك ولذريتك ، واطلقت ذلك لكم كنبات العشب ، ما خلا الدم ، ثم ان الله تعالى حرم على موسى ، وعلى بني اسرائيل كثيرا من الحيوان .

ثانيا : كان ادم عليه السلام يزوج الأخت من الأخ ثم حرم هذه في الشرائع الأخرى بعد ذلك .

(334) آل عمران 61

(335) البقرة ، 106

ويستعرض الرازي لإجابة اليهود عن هذين الإلزامين بأن الله تعالى لو أنه نص في زمني موسى وعيسى على أن شرعيهما سيصيران منسوخين لكان ذلك مشهوراً متواتراً ، ولما وقع التنازع في شأن النسخ . وحيث أن اليهود والنصارى مصرين على عدم التنصيص ، دل على عدم وجوده . ثم يستعرض الرازي أجوبته على هذه الأشكالات التي اثارها اليهود (336) .

(ز) ملاحظات على التفسير

في البدء لم يؤرخ الرازي أواخر الفاتحة (337) ، والبقرة (338) ، وابتداء في التاريخ بسورة ال عمران ، التي انتهى منها يوم الخميس أول ربيع الآخر سنة 595 / 1198 (339) .

النساء : يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الآخرة سنة 595 / 1198 (340) ، ثم يهمل الرازي ذكر التاريخ في سور المائدة (341) ، والأنعام (342) ، والأعراف (343) ،

الأنفال : يوم الأحد في رمضان سنة 601 / 1204 في قرية يقال لها بغداد (344) التوبة : يوم الجمعة الرابع عشر من رمضان سنة 601 / 1204 (345) .
يونس : يوم السبت من رجب سنة 601 / 1204 (346)

(336) راجع الرازي : التفسير 1 : 658 - 660

(337) راجع الرازي التفسير 1 : 226

(338) راجع الرازي : التفسير 2 : 582

(339) نفس المصدر 3 : 388

(340) نفس المصدر 3 : 517

(341) نفس المصدر 3 : 704

(342) نفس المصدر 4 : 259

(343) نفس المصدر 4 : 507

(344) نفس المصدر 4 : 581

(345) نفس المصدر 4 : 774

(346) نفس المصدر 5 : 50

هود : ليلة الإثنين من رجب سنة 601 / 1204 وفيها إشارة إلى أن النسخة أخذت عن نسخة المؤلف المكتوبة بخطه (347) .

يوسف : يوم الإربعاء السابع من شعبان سنة 601 / 1204 (348) .

الرعد : يوم الأحد الثامن عشر من شعبان 601 / 1204 (349) .

وبيث لنا الرازي في خواتم السور الأربعة المتقدمة أحزانه ، وأشجانه ، لفقد ابنه محمد ، الذي توفي في القرية في شرخ الشباب ، وهو ينشد لإخوانه في الدين ، وكل من وقف على الكتاب أن يذكر ابنه الصالح بالدعاء والمغفرة (350) ، ويرثيه في آخر سورة يوسف بأبيات مطلعها :

فلو كانت الأقدار منقادة لنا فدينك من حماك الروح والجسم (351)

ابراهيم : يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة 601 / 1204 في صحراء بغداد (352)

أما سورة الحجر فقد أهمل ذكر تاريخ الإنهاء منها (353) .

النحل : ليلة الثلاثاء بعد العشاء الآخرة ولم يذكر السنة (354) .

بنو اسرائيل : يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من محرم في بلدة غزنين 601 / 1204 (355)

الكهف : يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر صفر سنة 602 / 1255 (356) .

(347) نفس المصدر 5 : 149

(348) نفس المصدر 5 : 258

(349) نفس المصدر 5 : 113

(350) نفس المصدر 5 : 50 ؛ 149 ، 258 ، 313 .

(351) راجع بقية الأبيات في سورة يوسف 5 : 258

(352) نفس المصدر 5 : 372

(353) نفس المصدر 5 : 420 .

(354) نفس المصدر 5 : 540 .

(355) نفس المصدر 5 : 672 .

(356) نفس المصدر 5 : 762 .

ثم ينقطع مرة أخرى عن ذكر التاريخ في سورة مريم (357) ، وطه ،
والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان ، والشعراء ، والنمل ،
والقصص ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة ، والأحزاب ، (358)
وسبأ ، وفاطر ، ويس ، (359) ، وص .

ثم يستأنف ذكر التاريخ في آخر سورة الصافات فيقول :
« تم تفسير هذه السورة صحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة
سنة 603 / 1206

ص : يوم الخميس آخر الثلاثاء الثاني من ذي القعدة سنة 603 / 1206 (360) .
الزمر : ليلة الثلاثاء آخر ذي القعدة من سنة 603 / 1206 (361) .
المؤمن : يوم السبت الثاني من ذي الحجة : 603 / 1206 في بلد هراة (362)
حم : وقت الظهر الرابع من ذي الحجة سنة 603 / 1206 (363) .
الشوري : يوم الجمعة الثامن من شهر ذي الحجة 603 / 1206 (364) .
الزخرف : يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة : 603 / 1206 (365) .
الدخان : ليلة الثلاثاء في نصف الليل الثاني عشر من ذي الحجة سنة
603 / 1206 (366) .

-
- (357) نفس المصدر 5 : 832 .
(358) نفس المصدر 6 : 124 ، 206 ، 267 ، 309 ، 443 ، 504 ، 550 ، 585 ، 637 ، 694 ، 729 ، 756 ، 768 ، 806 .
(359) نفس المصدر 7 : 29 ، 57 ، 122 .
(360) راجع نفس المصدر 7 : 172 ، 226 .
(361) نفس المصدر 7 : 289 .
(362) نفس المصدر 7 : 345 .
(363) نفس المصدر 7 : 385 .
(364) نفس المصدر 7 : 427 .
(365) نفس المصدر 7 : 462 .
(366) نفس المصدر 7 : 478 .

الجاثية : يوم الجمعة بعد الصلاة الخامس عشر من ذي الحجة (367)
1206 / 603 .

الاحقاف : يوم الأربعاء العشرين من ذي الحجة 603 / 1206 (368) وفي
القتال لم يذكر شيئا (369) .

الفتح : الخميس السابع عشر من شهر ذي الحجة 603 / 1206 (370) .

ثم ينقطع ذكر التواريخ نهائيا من سورة الحجرات الى الناس (371) .

ومن خلال هذا العرض في ما يخص تأريخ الرازي لأواخر سورة ،

نستنتج عدة أشياء منها :

أن الرازي لم يتابع تفسيره بصورة منتظمة ، بل كان يفسر القرآن بدون
احترام تتابع السور ، بحيث نجده قد أهمل ذكر التاريخ في سورتي
الفاتحة ، والبقرة ، ثم اثبت في سورة ال عمران ، والنساء اللتان تمتا في
سنة 595 / 1198 . ولكن رغم هذا فإن القرائن تدل على أنه بدأ تفسيره
بalfاتحة وتابعه بالبقرة وال عمران والنساء .

بعد ذلك تأتي سور بني اسرائيل ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ،
ابراهيم ، التوبة ، الأنفال ، التي تم تفسيرها سنة 601 / 1204 وبذلك
نلاحظ قفزة زمنية بست سنوات لعل الرازي أنجز فيها تفسير سورة
المائدة ، والأنعام ، والأعراف . وفي سنة 602 / 1205 تم تفسير سورة
الكهف ، ولعله انجز معها مريم ، طه ، الأنبياء ، الحج ، المؤمنون
النور ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، العنكبوت ، الروم ، لقمان
السجدة ، الأحزاب ، سبا ، فاطر ، يس ،

(367) نفس المصدر 7 : 493 .

(368) نفس المصدر 7 : 521 .

(369) نفس المصدر 7 : 554 .

(370) نفس المصدر 7 : 581 .

(371) خلافا لشيخنا العميد المرحوم الفاضل ابن عاشور الذي يجعل الإنقطاع عن ذكر
التواريخ من النحل إلى الناس . راجع ابن عاشور ، 86 .

وفي سنة 603 / 1206 أتم الصافات ، ص ، الزمر ، المؤمن ، حم ، الشوري ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، الفتح .

وهذا الاختلاط في تاريخ أواخر السور هو الذي يجعلنا نبحث عن تعليل لعدة اسئلة وردت في التفسير ، يفهم منها أن تفسير الرازي وقع اكماله من طرف تلاميذه ، هذا زيادة على ما ورد في هذا الشأن في المصادر التي ترجمت للامام الرازي .

فقد ورد في تفسير سورة الواقعة في قوله تعالى « كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ الْمَكْنُونِ » (372) هذا القول « وشيء من هذا رأيته في كلام الفخر الرازي رحمه الله بعدما فرغت من كتابتي هذه مما وافق خاطري خاطره ، على أن معترف بأنني أصبت منه فوائد لا أحصيها » (373) .

وقد جاء في ابن أبي أصيبعة (374) عند ترجمته لأحمد ابن خليل الخوي أن من كتبه تمة تفسير ابن الخطيب .

وجاء كذلك في ابن السبكي (375) عندما ترجم لنجم الدين القمولي قوله « وله تكملة في تفسير الفخر الرازي » وتابعه ابن حجر في الدرر الكامنة (376) فأشار الى ان مكمل تفسير الفخر الرازي هو أحمد بن محمد بن ابي حزم نجم الدين المحزومي القمولي المتوفي سنة 727 / 1326 ، وأكد هذا خليفة (377) فذكر ان القمولي حقق تكملة لتفسير الرازي ، وقاضي قضاة دمشق شهاب الدين الخوي المتوفي سنة 639 / 1241 كمل نقصه (378) .

(372) الواقعة : 23

(373) راجع الرازي : التفسير 8 : 68

(374) راجع ابن أبي أصيبعة : 3 : 280

(375) راجع السبكي 5 : 179

(376) راجع ابن حجر : الدرر الكامنة 1 : 324 عدد 769

(377) خليفة 1756

(378) استفدنا من اشارة الدكتور علي محمد حسن العماري في كتابه الفخر الرازي القاهرة 1388 / 1969 .

ويستفاد من هذا أن تفسير الإمام الفخر الرازي لم يكمل من طرفه وإنما كمل بواسطة تلميذه الخوي والقموي

غير أن أصحاب الطبعة (379) البهية استغلوا الكلمات الواردة في تفسير سورة الواقعة ، والتي تثبت اسناد التحرير لشخص آخر غير الرازي فانكروا نسبة التفسير للرازي ، ونسبوه لغيره ، وهذا يعارضه اجماع العلماء الذين ترجموا للرازي وذكروا التفسير ، ونوهوا بشأنه ، وكذلك اشتهاره في كثير من الأصقاع .

وهناك إشارة أخرى واردة في سورة هود (380) ، تفيد أن الإمام الرازي كتب تفسيره بخط يده ، تؤكد لها إشارة ابن أبي اصبيعة ، وهي قوله « بخطه الدقيق » (381) .

واستخلص من كل هذه المعلومات المضطربة المتباعدة أن الرازي أملى تفسيره على تلاميذه كما هي العادة بالنسبة لغالب المفسرين ، ثم كتب نسخة بخط يده ، كان اعتمد فيها دروسه ، التي ألقاها في فترات متعددة ، مدفوعا بقول حساده الذين أنكروا عليه قدرته على استخلاص الأشياء الكثيرة من القرآن الكريم . ومما يرجح هذا الظن ، أنه كتب تفسيره الضخم في فترة لا تتجاوز الثماني سنوات ، وأنه كان ينجز السورة والسورتين في مدة قصيرة من الزمن ، فسر يوسف ، والرعد ، وإبراهيم في شهر شعبان من سنة 601 / 1204 .

كما لا ننسى أثر الغزو المغولي في ضياع كثير من مؤلفات الرازي ، ويحتمل أن تكون بعض أجزاء من التفسير ، أو تفسير بعض السور قد ضاع ، فجاء تلميذه الخوي الدمشقي ، وترجم له أقدم ترجمة ، وحكى عن هذه التهمة للتفسير (382) .

(379) راجع الرازي 29 : 155 الطبعة البهية .

(380) الرازي : التفسير 5 : 149

(381) راجع ابن أبي اصبيعة 3 : 44

(382) راجع ابن أبي اصبيعة 3 : 281 .

وقد أشار بعضهم (383) أن تفسير الرازي ظهر في الشام قبل غيرها من البلاد العربية وهي موطن شهاب الدين الخوي .

وربما عثر كذلك القمولي على نفس التفسير ناقصا ، فأكملة كذلك ، غير أننا لا نعرف الآن اذا كانت النسخة التي بين أيدينا هي من تكملة الخوي أو القمولي .

والخلاصة أن تفسير الإمام فخر الدين الرازي تفسير فريد في نوعه فهو قد استخدم ثقافته الضخمة في توضيح الآيات ، التي فيها اشارة الى ناحية من نواحي الثقافة الإسلامية ، وهو يكثر من النقول لكنه يتخير في نقله ، وربما كان نقله الغرض منه الاستدلال بكلام الآخرين على حجة ما يذهب إليه .

والرازي يميل دائما الى ذكر رأيه في التفسير ، أحيانا يكون هو المبتدئ بهذا الرأي ، وأحيانا أخرى يرجع بعض الآراء التي ينقلها مستدلا بأدلة متعددة على هذا الترجيح (384) ، واعتمادا على هذه الاعتبارات ، فان الرازي امتاز بشخصية مستقلة في تفسيره ، بارزة المعالم ، واضحة الخطه ، ولكنه مع ذلك نعت بالمبالغة ، وجمع أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ، وقال عنه بعض العلماء كلمته المشتهرة « فيه كل شيء إلا التفسير » ، واستغلها أبو حيان عندما تعرض لمسألة ادخال أشياء هي ليست من التفسير ، كما فعله الرازي حسب قوله الذي جمع عدة أشياء في كتابه ، لا حاجة بها في علم التفسير ، كالتحوي الذي يشرع في الكلام في الألف المنقلبة ، فيذكر أن الألف في الله أهي منقلبة عن واو أو ياء ، ثم تكلم عن الله تعالى فيما يجب له ، وما يجوز عليه ، ثم يستطرد إلى جواز ارسال الرسل ، وأوصافهم ، ثم الإعجاز القراني ، والبعث ، والجزاء ، والجنة ، والنار ، فبينما هو يتكلم عن الألف ، اذ به ينتقل الى الجنة والنار . ثم يردد أبو

(383) راجع ابن عاشور ، 91

(384) راجع المصاري ، 85

حيان كلمة استاذہ أبي جعفر ابن الزبير الثقفي ، الذي يقول اذا رأيت رجل ينتقل من فن إلى آخر في البحث ، فاعلم أنه إما قاصراً أو مختلطاً في ذهنه (385) .

على أن الرازي عندما أكثر من المسائل لم يكن جالبا لها على وجه الاستكثار ، والاستطراد الممل ، وإنما لأن مقتضيات القرآن تقتضي ذلك ، فهو يبدأ بما يبدأ به المفسرون ، ثم يربط أوصال ذلك بمقاصد حكيمية ، ومسائل علمية ، يسوقها على أنها حلقات متسلسلة تستفاد من اللفظ القرآني ، ولعل طريقة الاستنباط التي سلكها بعد ذلك الشيخ الإمام محمد عبده في المنار ، إنما استمد أصولها مما أنجزه الفخر الرازي في تفسيره (386) .

د . الطاهر العمودي

(385) راجع ابا حيان 1 : 341 ، 342

(386) راجع جومي في مقاله : بعض المواقف الحالية لتفسير القرآن في مصر بين سنة 1947 - 1951 .

